دِرَاسَاتٌ في البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ

إعداد
أ. د. عبد الرزّاق بن عبد المحسن البدر
الأستاذ في كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة

المقدّمة

أحمد الله بمحامده التي هو لها أهلٌ، وأثني عليه الخير كلّه، لا أحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، وأصلّي وأسلّم على خاتم رسله وأنبيائه، وإمام أوليائه وأصفيائه، نبيّنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد:

فلا يخفى على جميع المسلمين ما للكلمات الأربع: « سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر » من مكانة في الدّين عظيمة، ومنزلة في الإسلام رفيعة، فهُنّ أفضل الكلمات وأجلهنّ، وهنّ من القرآن، وهنّ أطيب الكلام وأحبّه إلى الله، وأحبُّ إلى رسوله ﷺ من كلّ ما طلعت عليه الشمس، وفيهنّ رفعٌ للدرجات وتكفيرٌ للذنوب والسيّئات، وجُنّة لقائلهنّ من النار. ويأتين يوم القيامة مُنجيات لقائلهنّ ومقدّمات له، إلى غير ذلك من صنوف الفضائل وأنواع المناقب، ممّا يدلُّ على عظيم شرف هؤلاء الكلمات عند الله وعلوّ منزلتهنّ عنده، وكثرة ما يترتّب عليهنّ من خيرات متواصلة وفضائل متوالية في الدنيا والآخرة، لذا رأيت أنّ من المفيد لي ولإخواني المسلمين أن أجمع في بحث مختصر بعض ما ورد في الكتاب والسنة من فضائل هؤلاء الكلمات الأربع مع بيان دلالاتهنّ ومقتضياتهنّ، وقد جعلت ذلك كلّه في مقدّمة ـ وهي هذه ـ وخمسة مباحث وخاتمة كما يلي:

المبحث الأول: في ذكر النصوص الدالة على فضل هؤلاء الكلمات الأربع.

المبحث الثاني: لا إله إلاّ الله، فضلها ومعناها وشروطها ونواقضها، وفيه عدّة مطالب:

المطلب الأول: فضائل كلمة لا إله إلاّ الله

المطلب الثاني: مدلول ومعنى لا إله إلاّ الله

المطلب الثالث: شروط لا إله إلاّ ا الله

المطلب الرابع: نواقض شهادة أن لا إله إلاّ ا الله

المبحث الثالث: في التسبيح فضله ومكانته ومدلوله، وفيه عدّة مطالب:

المطلب الأول: فضل التسبيح

المطلب الثاني: تسبيحُ جميع الكائنات لله

المطلب الثالث: معنى التسبيح

المبحث الرابع: في الحمد، فضله وأنواعه ودلالته، وفيه عدّة مطالب:

المطلب الأول: فضلُ الحمدِ والأدلّةُ عليه

المطلب الثاني: المواطن التي يتأكّد فيها الحمد

المطلب الثالث: في بيان موجبات الحمد وأنواعه

المطلب الرابع: أفضلُ صيَغِ الحمد وأكملُها

المطلب الخامس: تعريفُ الحمد، وبيان الفرق بينه وبين الشكر

المبحث الخامس: في التكبير فضله ومعناه، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: فضل التكبير ومكانته من الدِّين

المطلب الثاني: في معنى التكبير وبيان مدلوله

الخاتمة: في بيان التلازم بين هؤلاء الكلمات الأربع

وسمّيته „ دراسات في الباقيات الصالحات: سبحان ا الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ ا الله، وا الله أكبر „؛ لأنَّ هؤلاء الكلمات الأربع هنَّ أفضل الباقيات الصالحات، واعتمدتُ في أغلب الأحاديث على أحكام العلاّمة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني يرحمه ا الله.

وإنّي أرجو ا الله أن يكون في ذلك النفع لي وللمسلمين، إنّه وليُّ التوفيق والسداد.

المبحث الأول:

النصوص الدّالة على فضل هؤلاء الكلمات الأربع

لقد ورد في فضل هؤلاء الكلمات الأربع نصوصٌ كثيرةٌ تدل دلالةً قويةً على عظم شأنهنّ وجلالة قدرهنَّ، وما يترتّب على القيام بهنَّ من أجور عظيمةٍ وأفضال كريمةٍ، وخيراتٍ متواليةٍ في الدنيا والآخرة، وفيما يلي عرضٌ لجملة من فضائل هؤلاء الكلمات:

أولاً: فمِن فضائل هؤلاء الكلمات: أنَّهنَّ أحب الكلام إلى الله، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث سمرة بن جندب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « أَحبُّ الكلام إلى الله ــ تعالى ــ أربع، لا يضرك بأيّهنَّ بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر »[1]، ورواه الطيالسي في مسنده بلفظ: « أربع هنَّ من أطيب الكلام، وهنّ من القرآن، لا يضرك بأيّهنَّ بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر »[2].

ثانياً: ومِن فضائلهنَّ: أنّ النبي ﷺ أخبر أنَّهنَّ أحبُّ إليه ممّا طلعت عليه الشمس (أي: من الدنيا وما فيها)، لما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحبُّ إلي ممّا طلعت عليه الشمس »[3].

ثالثاً: ومن فضائلهنَّ: ما ثبت في مسند الإمام أحمد، وشعب الإيمان للبيهقي بإسناد جيّد عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح، عن أم هانئ بنت أبي طالب

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢١٣٧).
(٢) مسند الطيالسي (ص:١٢٢).
(٣) صحيح مسلم (رقم:٢٦٩٥).

قالت: مرّ بي رسول الله ﷺ فقلتُ: إنّي قد كبرتُ وضعُفت - أو كما قالت - فمُرني بعمل أعمله وأنا جالسة. قال: « سبّحي الله مائة تسبيحة، فإنّها تعدل لك مائة رقبة تعتقينها من ولد إسماعيل، واحمدي الله مائة تحميدة، تعدل لك مائة فرس مُسرجة ملجمة تحملين عليها في سبيل الله، وكَبّري الله مائة تكبيرة فإنّها تعدل لك مائة بدنة مُقلّدة متقبّلَة، وهلّلي مائة تهليلة - قال ابن خلف (الراوي عن عاصم) أحسبه قال -: تملأ ما بين السماء والأرض، ولا يرفع يومئذ لأحد عملٌ إلا أن يأتي بمثل ما أتيتِ به »[1]. قال المنذري: رواه أحمد بإسناد حسن[2]. وحسّن إسناده العلامة الألباني حفظه الله[3].

وتأمّل هذا الثواب العظيم المترتّب على هؤلاء الكلمات. فمن سبّح الله مائة، أي قال: سبحان الله مائة مرّة فإنّها تعدل عتق مائة رقبة من ولد إسماعيل، وخصّ بني إسماعيل بالذّكر لأنّهم أشرفُ العرب نسبا، ومن حمد الله مائة، أي من قال: الحمد لله مائة مرّة كان له من الثواب مثل ثواب من تصدّق بمائة فرس مسرجة ملجمة، أي: عليها سرجها ولجامها لحمل المجاهدين في سبيل الله، ومن كبّر الله مائة مرّة، أي قال: الله أكبر مائة مرّة كان له من الثواب مثلُ ثواب إنفاق مائة بدنةٍ مقلّدة متقبّلة، ومن هلّل مائة، أي قال: لا إله إلا الله مائة مرة فإنّها تملأ ما بين السماء والأرض، ولا يُرفع لأحدٍ عملٌ إلا أن يأتي بمثل ما أتى به.

رابعا: ومن فضائل هؤلاء الكلمات: أنّهنّ مكفّرات للذنوب، فقد ثبت في المسند، وسنن الترمذي، ومستدرك الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن

(١) المسند (٦/٣٤٤)، شعب الإيمان (رقم:٦١٢).
(٢) الترغيب والترهيب (٢/٤٠٩).
(٣) السلسلة الصحيحة (٣/٣٠٣).

العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: « ما على الأرض رجل يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كُفِّرت عنه ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر ». حسنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقرّه الذهبي، وحسّنه الألباني[1].

والمراد بالذنوب المكفَّرة هنا أي: الصغائر، لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ: أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفِّراتٌ ما بينهنّ إذا اجتُنبت الكبائر »[2]، فقيّد التكفير باجتناب الكبائر؛ لأنّ الكبيرة لا يُكفّرها إلا التوبة.

وفي هذا المعنى ما رواه الترمذي وغيره عن أنس بن مالك ﷺ: أنّ رسول الله ﷺ مرّ بشجرة يابسة الورق فضربها بعصاه فتناثر الورق، فقال رسول الله ﷺ: « إنّ الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر لتُساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة »، وحسّنه الألباني[3].

خامسا: ومن فضائل هؤلاء الكلمات: أنّهنّ غرس الجنة، روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ أنّه قال: « لقيت إبراهيم ليلة أُسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أنّ الجنة طيّبةُ التربة، عذبةُ الماء، وأنّها قيعان، غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر »[4]، وفي إسناد هذا الحديث عبد الرحمن بن إسحاق، لكن للحديث شاهدان يتقوى بهما من حديث أبي أيوب الأنصاري، ومن حديث عبد الله بن

(١) المسند (٢/١٥٨، ٢١٠)، وسنن الترمذي (رقم: ٣٤٦٠)، ومستدرك الحاكم (١/٥٠٣)، وصحيح الجامع (رقم: ٥٦٣٦).
(٢) صحيح مسلم (رقم: ٢٣٣).
(٣) سنن الترمذي (رقم: ٣٥٣٣)، وصحيح الجامع (رقم: ١٦٠١).
(٤) سنن الترمذي (رقم: ٣٤٦٢)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم: ١٠٥).

عمر.

والقيعان جمع قاع، وهو المكان المستوي الواسع في وطأة من الأرض يعلوه ماء السماء، فيمسكه ويستوي نباته، كذا في النهاية لابن الأثير[1]، والمقصود أنّ الجنة ينمو غراسها سريعاً بهذه الكلمات كما ينمو غراس القيعان من الأرض ونبتها.

سادساً: ومِن فضائلهنَّ: أنّه ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يعمر في الإسلام يكثر تكبيره وتسبيحه وتهليله وتحميده: روى الإمام أحمد، والنسائي في عمل اليوم والليلة بإسناد حسن عن عبد الله بن شداد: أنَّ نفرًا من بني عُذْرَة ثلاثةً أتوا النبيَّ ﷺ فأسلموا قال: فقال النبي ﷺ: « من يكفينيهم » قال طلحةُ: أنا، قال: فكانوا عند طلحة فبعث النبي ﷺ بعثاً فخرج فيه أحدُهم فاستشهدَ، قال: ثم بَعَثَ بعثاً آخر، فخرج فيهم آخر فاستشهد، قال: ثم مات الثالثُ على فراشه، قال طلحة: فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة، فرأيت الميت على فراشه أمامهم، ورأيت الذي استُشهد أخيرًا يليه، ورأيت الذي استُشهد أولَهم آخرَهم، قال: فدخلني من ذلك، قال: فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، قال: فقال رسول الله ﷺ: « ما أنكرتَ من ذلك، ليس أحدٌ أفضل عند الله من مؤمن يُعمّرُ في الإسلام يَكثُر تكبيرُه وتسبيحُه وتهليله وتحميده»[2].

وقد دلّ هذا الحديث العظيم على عِظم فضل من طال عمرُه وحسُن عملُه، ولم يزل لسانُه رَطْباً بذكر الله ﷻ.

سابعاً: ومن فضائلهنّ: أنَّ الله اختار هؤلاء الكلمات واصطفاهنّ لعِباده،

---

(١) (١٣٢/٤).

(٢) المسند (١٦٣/١)، والسنن الكبرى للنسائي كتاب: عمل اليوم والليلة (٦/رقم: ١٠٦٧٤)، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (رقم: ٦٥٤).

ورتّب على ذِكر ا لله بهنّ أجورًا عظيمة، وثوابًا جزيلا، ففي المسند للإمام أحمد ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة وأبي سعيد ـ رضي ا لله عنهما ـ: أنّ رسول ا لله ﷺ قال: « إنّ ا لله اصطفى من الكلام أربعا: سبحان ا لله، والحمد لله، ولا إله إلا ا لله، وا لله أكبر، فمن قال: سبحان ا لله كُتب له عشرون حسنة، وحُطّت عنه عشرون سيّئة، ومن قال: ا لله أكبر فمثل ذلك، ومن قال: لا إله إلا ا لله فمثل ذلك، ومن قال: الحمد لله رب العالمين مِن قِبل نفسِه كُتبت له ثلاثون حسنة، وحُطّ عنه ثلاثون خطيئة »[1].

وقد زاد في ثواب الحمد عندما يقوله العبد مِن قِبَل نفسه عن الأربع؛ لأنّ الحمد لا يقع غالباً إلا بعد سبب كأكلٍ أو شُربٍ، أو حدوث نعمة، فكأنّه وقع في مقابلة ما أُسديَ إليه وقت الحمد، فإذا أنشأ العبد الحمد من قِبل نفسه دون أن يدفعه لذلك تجدُّدُ نعمةٍ زاد ثوابه.

ثامنا: ومِن فضائلهنّ: أنّهنّ جُنّةٌ لقائلهنّ من النار، ويأتين يوم القيامة مُنجيات لقائلهنّ ومقدّمات له، روى الحاكم في المستدرك، والنسائي في عمل اليوم والليلة، وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول ا لله ﷺ: « خذوا جُنّتكم»، قلنا: يا رسول ا لله من عدو قد حضر! قال: « لا ، بل جُنّتكم من النار، قولوا: سبحان ا لله، والحمد لله، ولا إله إلا ا لله، وا لله أكبر، فإنّهنّ يأتين يوم القيامة منجيات ومقدّمات، وهنّ الباقيات الصالحات ». قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وصححّه العلامة الألباني يرحمه ا لله[2].

---

(١) المسند (٢/٣٠٢)، والمستدرك (١/٥١٢)، وقال العلاّمة الألباني في صحيح الجامع (رقم:١٧١٨): صحيح.

(٢) المستدرك (١/٥٤١)، السنن الكبرى كتاب: عمل اليوم والليلة (٦/٢١٢)، صحيح الجامع =

وقد تضمّن هذا الحديث إضافة إلى ما تقدّم وصف هؤلاء الكلمات بأنّهنّ الباقيات الصالحات. وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[1] والباقيات أي: التي يبقى ثوابها، ويدوم جزاؤها، وهذا خيرُ أمَلٍ يؤمّله العبد وأفضل ثواب.

تاسعاً: ومن فضائلهنّ: أنّهنّ ينعطفْن حول عرش الرحمن ولهنّ دويٌّ كدويّ النحل، يذكرن بصاحبهنّ، ففي المسند للإمام أحمد، وسنن ابن ماجه، ومستدرك الحاكم عن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إنّ ممّا تذكرون من جلال الله التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد، ينعطفْن حول العرش لهنّ دويٌّ كدويّ النحل، تذكر بصاحبها، أما يحب أحدكم أن يكون له، أو لا يزال له من يذكر به ». قال البوصيري في زوائد سنن ابن ماجه: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وصحّحه الحاكم[2].

فأفاد هذا الحديث هذه الفضيلة العظيمة، وهي أنّ هؤلاء الكلمات الأربع يَنعطِفْن حول العرش أي: يملن حوله، ولهنّ دَويٌّ كدويّ النحل: أي: صوتٌ يشبه صوت النحل يذكرن بقائلهنّ، وفي هذا أعظم حضٍّ على الذّكر بهذه الألفاظ، ولهذا قال في الحديث: « ألا يحب أحدكم أن يكون له أو لا يزال له من يذكر به ».

عاشراً: ومن فضائلهنّ: أنّ النبي ﷺ أخبر أنّهنّ ثقيلاتٌ في الميزان، روى النسائي في عمل اليوم والليلة، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وغيرهم عن أبي سلمى ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بخٍ بخٍ، ـ وأشار بيده

=(رقم: ٣٢١٤).

(١) سورة الكهف، الآية: (٤٦).

(٢) المسند (٤/٢٦٨، ٢٧١)، سنن ابن ماجه (رقم: ٣٨٠٩)، المستدرك (١/٥٠٣).

بخمس - ما أثقلهنّ في الميزان: سبحان ا لله، والحمد لله، ولا إله إلا ا لله، وا لله أكبر، والولدُ الصالح يُتوفى للمرء المسلم فيحتسبُه »، صححه الحاكم، ووافقه الذهبي[1]، وللحديث شاهد من حديث ثوبان ﷺ، خرّجه البزار في مسنده، وقال: إسناده حسن[2].

وقوله في الحديث: « بَخٍ بَخٍ » هي كلمة تقال عند الإعجاب بالشيء وبيان تفضيله.

حادي عشر: ومن فضائل هؤلاء الكلمات: أنّ للعبد بقول كلِّ واحدة منهنّ صدقة، روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر ﷺ: أنّ ناساً من أصحاب رسول ا لله ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول ا لله ذهب أهل الدُّثور بالأجور، يصلّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون بفضول أموالهم. قال: « أوَ ليس قد جعل ا لله لكم ما تصدّقون؟ إنّ بكلِّ تسبيحة صدقة، وكلِّ تكبيرة صدقة، وكلِّ تحميدة صدقة، وكلِّ تهليلةٍ صدقة، وأمرٍ بالمعروف صدقة، ونهيٍ عن منكر صدقة، وفي بُضعِ أحدكم صدقة ». قالوا: يا رسول ا لله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجرٌ؟ قال: « أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ »[3].

وقد ظنّ الفقراء أن لا صدقة إلا بالمال، وهم عاجزون عن ذلك، فأخبرهم النبي ﷺ أنّ جميع أنواع فعل المعروف والإحسان صدقةٌ، وذكر في مقدّمة ذلك هؤلاء الكلمات الأربع: سبحان ا لله، والحمد لله، ولا إله إلا ا لله، وا لله أكبر.

---

(١) السنن الكبرى كتاب: عمل اليوم والليلة (٦/٥٠)، صحيح ابن حبان (الإحسان) (٣/١١٤/رقم:٨٣٣)، المستدرك (١/٥١١،٥١٢).
(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار (٤/٩/رقم:٣٠٧٢).
(٣) صحيح مسلم (رقم:١٠٠٦).

ثاني عشر: ومن فضائل هؤلاء الكلمات: أنَّ النبي ﷺ جعلهنّ عن القرآن الكريم في حقِّ من لا يُحسنه، روى أبو داود، والنسائي، والدارقطني، وغيرهم عن ابن أبي أوفى ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنّي لا أستطيع أن أتعلّمَ القرآنَ، فعلّمني شيئاً يُجزيني. قال: « تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله ». فقال الأعرابي: هكذا ـ وقبض يديه ـ فقال: هذا لله، فمَا لي؟ قال: « تقول: اللّهمّ اغفر لي وارْحمني وعافِني وارْزقني واهْدِني »، فأخذها الأعرابيُّ وقبض كفّيه، فقال النبي ﷺ: « أما هذا فقد مَلأَ يديه بالخير »[1].

قال المحدّث أبو الطيّب العظيم آبادي في تعليقه على سنن الدارقطني : سنده صحيح. وقال الألباني يرحمه الله : سنده حسن[2].

فهذه بعض الفضائل الواردة في السنة النبوية لهؤلاء الكلمات الأربع، وقد ورد لكلِّ كلمة منهن فضائلُ مخصوصةٌ سيأتي تفاصيلها إن شاء الله، ومن يتأمل هذه الفضائل المتقدّمة يجد أنّها عظيمةٌ جدًا، ودالّةٌ على عِظم قدرِ هؤلاء الكلمات، ورفعة شأنهنّ وكثرة فوائدهنّ وعوائدهنّ على العبد المؤمن، ولعلّ السر في هذا الفضل العظيم ـ والله أعلم ـ ما ذُكر عن بعض أهل العلم أنّ أسماء الله ـ تبارك وتعالى ـ كلّها مندرجةٌ في هذه الكلمات الأربع، فسبحان الله يندرج تحته أسماءُ التنزيه كالقدّوس والسلام، والحمد لله مشتملة على إثبات أنواع الكمال لله ـ تبارك في أسمائه وصفاته ـ، والله أكبر فيها تكبير الله وتعظيمه، وأنّه لا يُحصي أحدٌ الثناءَ عليه، ومن كان كذلك فـ(لا إله إلا هو)

---

(١) سنن أبي داود (رقم:٨٣٢)، سنن النسائي (١٤٣/٢)، سنن الدارقطني (٣١٣/١،٣١٤).
(٢) صحيح أبي داود (١٥٧/١).

أي: لا معبود حق سواه[1].

فللّه ما أعظمَ هؤلاء الكلمات، وما أجلَّ شأنهنَّ، وما أكبرَ الخير المترتّب عليهنّ، فنسأل الله أن يوفقنا للمحافظة والمداومة عليهنّ ، وأن يجعلنا من أهلهنّ الّذين ألسنتهم رطبةٌ بذلك، إنَّه وليّ ذلك والقادر .

---

(١) انظر : جزء في تفسير الباقيات الصالحات للعلائي (ص: ٤٠).

المبحث الثاني:

لا إله إلاّ الله، فضلها ومعناها وشروطها ونواقضها:

•المطلب الأول: فضائل لا إله إلاّ الله

إنّ كلمة التوحيد: لا إله إلاّ الله، هي أفضل هؤلاء الكلمات الأربع، وأجلّهنّ وأعظمهنّ؛ فلأجلها خُلقت الخليقة، وأُرسلت الرسلُ، وأُنزلت الكتبُ، وبها افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار، فهي العروة الوثقى، وهي كلمة التقوى، وهي أعظم أركان الدّين وأهم شعب الإيمان، وهي سبيل الفوز بالجنة والنجاة من النار، وهي كلمة الشهادة، ومفتاح دار السعادة، وأصل الدين وأساسه ورأس أمره، وفضائل هذه الكلمة وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

ولهذا فإنّ لهذه الكلمة الجليلة فضائل عظيمة، وفواضل كريمة، ومزايا جمّة، لا يُمكن لأحد استقصاؤها، ومما ورد في فضل هذه الكلمة في القرآن الكريم أنّ الله - تبارك وتعالى - جعلها زبدة دعوة الرسل، وخلاصة رسالاتهم، قال الله - تعالى - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2]، وقال - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[3]، وقال - تعالى - في أول سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾[4]، وهذه

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٨).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: (٢٥).

(٣) سورة النحل، الآية: (٣٦).

(٤) سورة النحل، الآية: (٢).

الآية هي أول ما عدّد ا لله على عباده من النعم في هذه السورة، فدلّ ذلك على أنَّ التوفيق لذلك هو أعظم نعم ا لله ـ تعالى ـ التي أسبغها على عباده كما قال ــ سبحانه ــ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1]. قال مجاهد: « لا إله إلا ا لله»[2].

وقال سفيان بن عيينة: « ما أنعم ا لله على عبد من العباد نعمةً أعظم من أن عرَّفهم لا إله إلا ا لله »[3].

ـ ومن فضائلها: أنَّ ا لله وصفها في القرآن بأنَّها الكلمة الطيّبة، قال ا لله ــ تعالى ـ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[4].

ـ وهي القول الثابت في قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾[5].

وهي العهد في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[6]، روي عن ابن عباس ـ رضي ا لله عنهما ـ أنَّه قال: « العهد: شهادةَ أن لا إله إلا ا لله، ويتبرّأ إلى ا لله ﷻ من الحول والقوة، وهي رأس كلّ تقوى»[7].

---

(١) سورة لقمان، الآية: (٢٠).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٧٨/١١).

(٣) ذكره ابن رجب في ((كلمة الإخلاص)) (ص:٥٣).

(٤) سورة إبراهيم، الآية: (٢٤).

(٥) سورة إبراهيم، الآية: (٢٧).

(٦) سورة مريم، الآية: (٨٧).

(٧) رواه الطبراني في الدعاء (١٥١٨/٣).

- ومن فضائلها: أنَّها العروة الوثقى التي من تمسّك بها نجا، ومن لم يتمسّك بها هلك، قال تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾(١)، وقال - تعالى -: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾(٢).

- ومن فضائلها: أنَّها الكلمة الباقية التي جعلها إبراهيم الخليل عليه السلام في عقبه لعلهم يرجعون، قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣).

- وهي كلمة التقوى التي ألزمها الله أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا أحقّ بها وأهلها، قال الله - تعالى -: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(٤).

روى أبو إسحاق السبيعي، عن عمرو بن ميمون قال: ما تكلّم الناس بشيء أفضل من لا إله إلا الله، فقال سعد بن عياض: « أتدري ما هي يا أبا عبد الله؟ هي والله كلمة التقوى ألزمها الله أصحاب محمد ﷺ، وكانوا أحقّ بها وأهلها رضي الله عنهم »(٥).

- ومن فضائل هذه الكلمة: أنَّها منتهى الصواب وغايته، قال الله - تعالى-: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٥٦).
(٢) سورة لقمان، الآية: (٢٢).
(٣) سورة الزخرف، الآية: (٢٦ - ٢٨).
(٤) سورة الفتح، الآية: (٢٦).
(٥) رواه الطبراني في الدعاء (١٥٣٣/٣).
(٦) سورة النبأ، الآية: (٣٨).

روى علي بن طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أنّه قال: « إلا من أذنَ له الربّ ﷻ بشهادة أن لا إله إلا الله، وهي منتهى الصواب »[1].

وقال عكرمة: « الصواب: لا إله إلا الله »[2].

- ومن فضائلها: أنّها هي دعوة الحق المرادة بقوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[3].

- ومن فضائلها: أنّها هي الرابطة الحقيقية التي اجتمع عليها أهل دين الإسلام، فعليها يُوالون ويعادون، وبها يُحبّون ويُبغضون، وبسببها أصبح المجتمع المسلم كالجسد الواحد وكالبنيان المرصوص يَشُدُّ بعضها بعضاً.

قال الشيخ العلاّمة محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - في كتابه أضواء البيان: « والحاصل أنّ الرابطة الحقيقية التي تَجمع المفترقَ وتؤلف المختلف هي رابطة لا إله إلا الله، ألا ترى أنّ هذه الرابطة التي تجمع المجتمع الإسلامي كلّه كأنّه جسدٌ واحدٌ، وتجعله كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، عطفت قلوب حملة العرش ومن حوله من الملائكة على بني آدم في الأرض مع ما بينهم من الاختلاف، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ

---

(١) رواه الطبراني في الدعاء (٣/١٥٢٠).
(٢) رواه الطبراني في الدعاء (٣/١٥٢٠).
(٣) سورة الرعد، الآية: (١٤).

﴿وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1]، فقد أشار ـ تعالى ـ إلى أنَّ الرابطة التي ربطت بين حملة العرش ومن حوله وبين بني آدم في الأرض حتى دعوا الله لهم هذا الدعاء الصالح العظيم إنّما هي الإيمان بالله ـ جلَّ وعلا ـ.

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: وبالجملة فلا خلاف بين المسلمين أنَّ الرابطة التي تربط أفراد أهل الأرض بعضهم ببعض وتربط بين أهل الأرض والسماء هي رابطة لا إله إلا الله، فلا يجوز ألبتة النداءُ برابطة غيرها »[2] اهـ.

ـ ومن فضائل هذه الكلمة: أنّها أفضل الحسنات، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾[3].

وقد ورد عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي هريرة، وغيرهم: أنَّ المراد بالحسنة: « لا إله إلا الله »[4]، وعن عكرمة ـ رحمه الله ـ في قول الله ﷻ: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قال: « قول: لا إله إلا الله. قال: له منها خير؛ لأنّه لا شيء خير من لا إله إلا الله »[5].

وقد ثبت في المسند وغيره عن أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله علّمني عملاً يُقرّبني من الجنة ويُباعدني من النار. فقال: « إذا عملتَ سيّئةً فاعمل حسنةً فإنّها عشر أمثالها ». قلت: يا رسول الله، أفَمِنَ الحسنات لا إله إلا الله؟

---

(١) سورة غافر، الآية: (٧ ـ ٩).

(٢) أضواء البيان (٣/٤٤٧، ٤٤٨).

(٣) سورة النمل، الآية: (٨٩)، القصص، الآية: (٨٤).

(٤) انظر: الدعاء للطبراني (٣/١٤٩٧، ١٤٩٨).

(٥) أورده ابن البنا في ((فضل التهليل وثوابه الجزيل)) (ص: ٧٤).

قال: « نعم هي أحسن الحسنات »[1].

فهذه بعض فضائل هذه الكلمة العظيمة،من خلال ما ورد في القرآن الكريم، وفيما يلي ذكر لبعض فضائلها من خلال ما ورد من ذلك في سنة النبي الكريم ﷺ.

- فمن فضائلها: أنَّها أفضلُ الأعمال وأكثرُها تضعيفاً، وتَعدِلُ عِتقَ الرِّقاب، وتكون لقائلها حِرزًا من الشيطان، كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيء قديرٌ في يوم مائة مرّة كانت له عِدْل عشرِ رقاب، وكُتب له مائة حسنة، ومُحي عنه مائة سيّئة، ولم يأت أحدٌ بأفضل مما جاء به، إلا أحدٌ عملَ أكثرَ من ذلك »[2].

وفيهما - أيضاً - عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « من قالها عشرَ مرات كان كمن أَعتقَ أربعة أنفس من وَلَدِ إسماعيل »[3].

- ومن فضائلها: أنَّها أفضل ما قاله النبيّون، لما ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنَّه قال: « أفضل ما قلتُ أنا والنبيّون عشيةَ عَرَفَةَ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيء قدير »[4]، وفي لفظ: « خيرُ الدعاءِ دعاءُ يوم عرفة، وخيرُ ما قلته أنا والنبيُّون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيء قدير »[5].

---

(١) المسند (١٦٩/٥).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٣٢٩٣)، و(رقم:٦٤٠٣)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩١).

(٣) صحيح البخاري (رقم:٦٤٠٤)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩٣).

(٤) أخرجه الطبراني في الدعاء (رقم:٨٧٤) من حديث علي رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (رقم:٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو. وحسنه العلامة

ـ ومن فضائلها: أنَّها ترجحُ بصحائف الذنوبِ يوم القيامة كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ المُخرَّج في المسند، وسنن النسائي، والترمذي، وغيرهما بإسناد جيّد عن النبي ﷺ أنَّه قال: « يُصاح برجل من أمّتي على رؤوس الخلائق يوم القيامةِ، فيُنشرُ له تسعةٌ وتسعون سِجلاً، كلُّ سِجلٍّ منها مدّ البصر، ثم يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ له: أتُنكر من هذا شيئا؟ فيقول: لا يا ربّ. فيقول ﷻ: ألَكَ عُذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا يا رب. فيقول ﷻ: بلى إنَّ لك عندنا حسنة، وإنَّه لا ظلم عليك، فتُخرجُ له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السِجلاَّت؟ فيقول ﷻ: إنَّك لا تُظلم، قال: فتُوضَع السجلات في كِفَّة والبطاقة في كِفَّة، فطاشت السِجلاَّت وثقُلت البطاقة »[1].

ولا ريب أنَّ هذا قد قام بقلبه من الإيمان ما جعل بطاقته التي فيها لا إله إلا الله تطيش بتلك السِجلاّت، إذ الناس متفاضلون في الأعمال بحسب ما يقوم بقلوبهم من الإيمان، وإلا فكم من قائل لا إله إلا الله لا يحصل له مثل هذا لضعف إيمانه بها في قلبه، فقد ورد في الصحيحين من حديث أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ أنَّه قال: « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرةٍ من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برّة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير »[2]، فدلّ ذلك على أنَّ أهل لا إله إلا الله متفاوتون فيها بحسب ما قام في قلوبهم من إيمان.

= الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/٧،٨)، وقال: الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد.

(١) المسند (٢/٢١٣)، سنن الترمذي (رقم:٢٦٣٩)، سنن ابن ماجه (رقم:٤٣٠٠)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٨٠٩٥)

(٢) صحيح البخاري (رقم:٤٤)، وصحيح مسلم (رقم:١٩٣) (٣٢٥).

ـ ومن فضائل هذه الكلمة: أنّها لو وُزنت بالسموات والأرض رجحت بهنّ كما في المسند عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: « أنّ نوحا قال لابنه عند موته: آمُرُك بلا إله إلا الله، فإنّ السموات السبع والأرضين السبع لو وُضعت في كفة، ووُضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهنّ لا إله إلا الله، ولو أنّ السموات السبع في حلقة مبهمة لقصمتهنّ لا إله إلا الله »[1].

ـ ومن فضائلها: أنّها ليس لها دون الله حجاب، بل تخرق الحُجب حتى تصل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ففي الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنّه قال: « ما قال عبدٌ لا إله إلا الله مخلصا إلا فُتحت له أبواب السماء حتى تُفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر »[2].

ـ ومن فضائلها: أنّها نجاةٌ لقائلها من النار، ففي صحيح مسلم: أنّ النبي ﷺ سمع مؤذّنا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال: « خرج من النار »[3]، وفي الصحيحين من حديث عِتبان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنّه قال: « إنّ الله حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله »[4].

ـ ومن فضائل هذه الكلمة: أنّ النبي ﷺ جعلها أفضل شُعب الإيمان، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ النبي ﷺ قال: « الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[5].

(١) المسند (٢/ ١٧٠) . وصححه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم:١٣٤).
(٢) سنن الترمذي (٣٥٩٠) . وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٥٦٤٨).
(٣) صحيح مسلم (رقم:٣٨٢) .
(٤) صحيح البخاري (رقم:٦٩٣٨) . وصحيح مسلم (رقم : ٣٣) (٢٦٣).
(٥) صحيح البخاري (رقم:٩) . وصحيح مسلم (رقم : ٣٥) .

- ومن فضائلها: أنّ النبي ﷺ أخبر أنّها أفضلُ الذّكر كما في الترمذي وغيره من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « أفضل الذّكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله »[1].

- ومن فضائلها: أنّ من قالها خالصاً من قلبه يكون أسعد الناس بشفاعة الرسول الكريم ﷺ يوم القيامة، كما في الصحيح من حديث أبي هريرة ﵁ أنّه قال: قيل: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: « لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه »[2].

●المطلب الثاني: مدلولُ ومعنى كلمة لا إله إلاّ الله

إنّ كلمة التوحيد لا إله إلا الله التي هي خير الذّكر وأفضله وأكمله لا تكون مقبولة عند الله بمجرّد التلفّظ بها باللسان فقط، دون قيام من العبد بحقيقة مدلولها، ودون تطبيق لأساس مقصودها من نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله، مع الاعتقاد الجازم لما تضمّنته من ذلك والعمل به، فبذلك يكون العبد مسلما حقا، وبذلك يكون من أهل لا إله إلا الله.

وقد تضمّنت هذه الكلمة العظيمة أنّ ما سوى الله ليس بإله، وأنّ إلهية ما سواه أبطلُ الباطل، وإثباتها أظلمُ الظلم، ومنتهى الضلال، قال الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِن مَن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ

(١) سنن الترمذي (رقم:٣٣٨٣)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:١١٠٤).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٩٩).

غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين﴾[1]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ذلك بأنّ الله هو الحقّ وأنّ ما يدعون من دونه هو الباطل وأنّ الله هو العليّ الكبير﴾[2]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾[3]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾[4]، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، ولا ريب أنّ صرف العبادة لغير الله ظلم؛ لأنّه وضع لها في غير موضعها، بل إنّه أظلم الظلم وأخطره.

إنّ لـ لا إله إلا الله ـ هذه الكلمة العظيمة ـ مدلولا لا بدّ من فهمه، ومعنى لا بدّ من ضبطه، إذ غير نافع بإجماع أهل العلم النطق بها من غير فهم لمعناها، ولا عمل بما تقتضيه، كما قال الله – سبحانه –: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلاّ من شهد بالحقّ وهم يعلمون﴾[5]، ومعنى الآية كما قال أهل التفسير؛ أي: إلا من شهد بلا إله إلا الله وهم يعلمون بقلوبهم معنى ما نطقوا به بألسنتهم، إذ إنّ الشهادة تقتضي العلم بالمشهود به، فلو كانت عن جهل لم تكن شهادة، وتقتضي الصدق، وتقتضي العمل بذلك، وبهذا يتبيّن أنّه لا بدّ في هذه الكلمة من العلم بها مع العمل والصدق، فبالعلم ينجو العبد من طريقة النصارى الذين يعملون بلا علم، وبالعمل ينجو من طريق اليهود الذين يعلمون ولا يعملون، وبالصدق ينجو من طريقة المنافقين الذين يظهرون ما لا يبطنون، ويكون بذلك من أهل صراط الله المستقيم، من الذين أنعم الله عليهم، غير

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: (٦،٥).
(٢) سورة الحج، الآية: (٦٢).
(٣) سورة لقمان، الآية: (١٣).
(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٥٤).
(٥) سورة الزخرف، الآية: (٨٦).

المغضوب عليهم ولا الضالين.

والحاصل أنّ لا إله إلا الله لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفيا وإثباتا، واعتقد ذلك وعمل به، أما من قالها وعمل بها ظاهرا من غير اعتقاد فهو المنافق، وأما من قالها وعمل بضدّها وخلافها من الشرك فهو الكافر، وكذلك من قالها وارتدّ عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها فإنّها لا تنفعه ولو قالها ألف مرّة. وكذلك من قالها وهو يصرف أنواعا من العبادة لغير الله كالدعاء، والذبح، والنذر، والاستغاثة، والتوكل، والإنابة، والرجاء، والخوف والمحبة، ونحو ذلك.. ... فمن صرف مما لا يصلح إلا لله من العبادات لغير الله فهو مشرك بالله العظيم ولو نطق بلا إله إلا الله؛ إذ لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص الذي هو معنى ومدلول هذه الكلمة العظيمة[1].

فإنّ لا إله إلا الله معناها: لا معبود حق إلا إله واحد، وهو الله وحده لا شريك له، والإله في اللغة هو المعبود، ولا إله إلا الله: أي لا معبود حق إلا الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2]، مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[3]، فتبيّن بذلك أنّ معنى الإله هو المعبود، وأنّ لا إله إلا الله معناها إخلاص العبادة لله وحده واجتناب عبادة الطاغوت، ولهذا لما قال النبي ﷺ لكفار قريش: قولوا: لا إله إلا الله قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[4]، وقال قومُ هود لنبيّهم لما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله،

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص:٧٨).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: (٢٥).

(٣) سورة النحل، الآية: (٣٦).

(٤) سورة ص، الآية: (٥).

قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[1]، قالوا ذلك وهو إنّما دعاهم إلى لا إله إلا الله؛ لأنّهم فهموا أنّ المراد بها نفي الألوهية عن كلّ ما سوى الله وإثباتها لله وحده لا شريك له، فـ لا إله إلا الله اشتملت على نفي وإثبات، فنفت الإلهية عن كلّ ما سوى الله ـ تعالى ـ، فكلُّ ما سوى الله من الملائكة والأنبياء فضلا عن غيرهم فليس بإله، وليس له من العبادة شيء، وأثبتت الإلهية لله وحده، بمعنى أنّ العبد لا يأْلَهُ غيره، أي: لا يقصده بشيء من التألّه، وهو تعلّق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك.

وقد جاء في القرآن الكريم نصوصٌ كثيرةٌ تُبيّنُ معنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وتوضح المراد بها، ومن ذلك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[2]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[3]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[4]، وقال ـ تعالى ـ حكاية عن مؤمن يس: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[5]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (٧٠).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٦٣).

(٣) سورة البينة، الآية: (٥).

(٤) سورة الزخرف، الآية: (٢٦ ـ ٢٨).

(٥) سورة يس، الآية: (٢٢ ـ ٢٤).

﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾[1]، وقال ـ تعالى ـ حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[2]، والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ جدًّا، وهي تُبيّن أنّ معنى لا إله إلا الله هو البراءة من عبادة ما سوى الله من الشفعاء والأنداد، وإفرادُ الله وحده بالعبادة. فهذا هو الهدى ودين الحق الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه. أما قول الإنسان لا إله إلا الله من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، بل لربما جعل لغير الله حظا ونصيبا من عبادته من الدعاء والخوف والذبح والنذر وغير ذلك من أنواع العبادات فإنّ هذا لا يكفي العبد لأن يكون من أهل لا إله إلا الله، ولا ينجيه يوم القيامة من عذاب الله[3].

فليست لا إله إلا الله اسما لا معنى له، أو قولا لا حقيقة له، أو لفظا لا مضمون له، كما قد يظنّه بعض الظانين، الذين يعتقدون أنّ غاية التحقيق في ذلك هو النطق بهذه الكلمة من غير اعتقاد في القلب بشيء من المعاني، أو التلفظ بها من غير إقامة لشيء من الأصول والمباني، وهذا قطعا ليس هو شأن هذه الكلمة العظيمة، بل هي اسم لمعنى عظيم، وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني، وحاصله كما تقدّم البراءةُ من عبادة كلّ ما سوى الله، والإقبال على الله وحده خضوعا وتذلّلا، وطمعا ورغبا، وإنابة وتوكّلا، ودعاء وطلبا، فصاحب لا إله إلا الله لا يسأل إلا الله، ولا يستغيث إلا بالله، ولا

(١) سورة الزمر، الآية: (١١ ـ ١٤).
(٢) سورة غافر، الآية: (٤١ ـ ٤٣).
(٣) نظر: تيسير العزيز الحميد (ص: ١٤٠).

يتوكّل إلا على الله، ولا يرجو غير الله، ولا يذبح إلا لله، ولا يصرف شيئاً من العبادة لغير الله، ويكفر بجميع ما يُعبد من دون الله، ويبرأ إلى الله من ذلك.

●المطلب الثالث: شروط لا إله إلاّ الله

إنّ من المعلوم لدى كلّ مسلمٍ أنّ كلَّ طاعةٍ يتقرّب بها العبد إلى الله لا تُقبل منه إلا إذا أتى بشروطها، فالصلاة لا تُقبل إلا بشروطها المعلومة، والحج لا يُقبل إلا بشروطه، وجميع العبادات كذلك لا تُقبل إلاّ بشروطها المعلومة من الكتاب والسنة، وهكذا الشأن في لا إله إلا الله لا تُقبل إلا إذا قام العبد بشروطها المعلومة في الكتاب والسنة.

وقد أشار سلفُنا الصالح - رحمهم الله - إلى أهميّة العناية بشروط لا إله إلا الله ووجوب الالتزام بها، وأنّها لا تُقبل إلا بذلك، ومن ذلك ما جاء عن الحسن البصري - رحمه الله -: أنّه قيل له: إنّ ناساً يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة. فقال: من قال لا إله إلا الله فأدّى حقّها وفرضَها دخل الجنة.

وقال الحسن للفرزدق وهو يدفن امرأته: ما أعددتَّ لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة. فقال الحسن: نِعمَ العُدّة، لكن للا إله إلا الله شروطاً فإياك وقذف المحصنات.

وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس مفتاح الجَنّة لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فُتح لك، وإلا لم يُفتح. يشير بالأسنان إلى شروط لا إله إلا الله[1].

ثم إنّه باستقراء أهل العلم لنصوص الكتاب والسنة تبيّن أنّ لا إله إلا الله لا تُقبل إلا بسبعة شروط وهي:

١ ـ العلم بمعناها نفياً وإثباتاً المنافي للجهل.

---

(١) أورد هذه الآثار ابن رجب في ((كلمة الإخلاص)) (ص:١٤).

٢ ـ اليقين المنافي للشك والريب.

٣ ـ الإخلاص المنافي للشرك والرياء.

٤ ـ الصدق المنافي للكذب.

٥ ـ المحبّة المنافية للبغض والكره.

٦ ـ الانقياد المنافي للترك.

٧ ـ القبول المنافي للردّ.

وقد جمع بعضُ أهل العلم هذه الشروط السبعة في بيتٍ واحدٍ فقال:

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقُك معْ   محبّةٍ وانقيادٍ والقَبولُ لها

ولنقِف وقفةً مختصرةً مع هذه الشروط لبيان المراد بكلٍّ واحدٍ منها، مع ذِكر بعض أدلّتها من الكتاب والسنة[1].

ـ أما الشرط الأول: وهو العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً المنافي للجهل، وذلك بأن يعلم من قالها أنّها تنفي جميع أنواع العبادة عن كلٍّ ما سوى الله، وتُثبت ذلك لله وحده، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نعبدُك ولا نعبد غيرَك، ونستيعن بك ولا نستعين بسواك.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[2]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3] قال المفسِّرون: إلا من شهد بـ لا إله إلا الله، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: معنى ما شهدوا به في قلوبهم وألسنتهم.

---

(١) وانظر شرحها موسعاً في: معارج القبول للشيخ حافظ حكمي (٣٧٧/١ وما بعدها).

(٢) سورة محمد، الآية: (١٩).

(٣) سورة الزخرف، الآية: (٨٦).

وثبت في صحيح مسلم من حديث عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « من مات وهو يعلم أنَّه لا إله إلا الله دخل الجنة »[(١)]، فاشترط عليه الصلاة والسلام العلمَ.

ـ أما الشرط الثاني: فهو اليقين المنافي للشك والريب، أي: أن يكون قائلها موقنا بها يقيناً جازماً لا شك فيه ولا ريب، واليقين هو تمام العلم وكماله، قال الله ـ تعالى ـ في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[(٢)]، ومعنى قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: أيقنوا ولم يشكّوا.

وثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « أشهد أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله، لا يلقى الله بهما عبدٌ غيرُ شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة »[(٣)].

وثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ـ أيضاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: « من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشّره بالجنة »[(٤)]، فاشترط اليقين.

ـ والشرط الثالث: هو الإخلاص المنافي للشرك والرياء، وذلك إنّما يكون بتصفية العمل وتنقيته من جميع الشوائب الظاهرة والخفيّة، وذلك بإخلاص النية في جميع العبادات لله وحده، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[(٥)]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[(٦)]، وفي الصحيح عن أبي

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٦).
(٢) سورة الحجرات ، الآية : (١٥).
(٣) صحيح مسلم (رقم :٢٧).
(٤) صحيح مسلم (رقم :٣١).
(٥) سورة الزمر، الآية : (٣).
(٦) سورة البينة، الآية : (٥).

هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: « أسعدُ الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه »[1]. فاشترط الإخلاص.

ـ والشرط الرابع: هو الصدق المنافي للكذب، وذلك بأن يقول العبدُ هذه الكلمة صادقا من قلبه، والصدق هو أن يواطئ القلبُ اللسانَ، ولذا قال الله ـ تعالى ـ في ذمّ المنافقين: ﴿إذا جاءكَ المنافقونَ قالوا نشهدُ إنكَ لرسولُ اللهِ واللهُ يعلمُ إنكَ لرسولُهُ واللهُ يشهدُ إنّ المنافقينَ لكاذبونَ﴾[2]. فوصفهم سبحانه بالكذب؛ لأنّ ما قالوه بألسنتهم لم يكن موجودا في قلوبهم. وقال ـ سبحانه ـ وتعالى: ﴿ألم أحسِبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهُمْ لا يُفتنون ولقدْ فتنّا الذينَ من قبلِهمْ فليعلمنّ اللهُ الذينَ صدقوا وليعلمنّ الكاذبينَ﴾[3]. وثبت في الصحيحين عن معاذ بن جبل ﷺ، عن النبي ﷺ قال: « ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا عبده ورسوله صادقا من قلبه إلا حرّمه الله على النار »[4]. فاشترط الصدق.

ـ الشرط الخامس: المحبّة المنافية للبغض والكره، وذلك بأن يحب قائلها الله ورسوله ودين الإسلام والمسلمين القائمين بأوامر الله الواقفين عند حدوده، وأن يُبغض من خالف لا إله إلا الله وأتى بما يُناقضها من شرك وكفر، ومما يدل على اشتراط المحبة في الإيمان قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ومنَ الناسِ من يتخذُ من دونِ اللهِ أنداداً يحبّونهمْ كحبِّ اللهِ والذينَ آمنوا أشدُّ حُباً للهِ﴾[5]. وفي الحديث: « أوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله »[6].

(١) صحيح البخاري (رقم:٩٩).
(٢) سورة المنافقون، الآية: (١).
(٣) سورة العنكبوت، الآية: (١ ـ ٣).
(٤) صحيح البخاري (رقم:١٢٨)، وصحيح مسلم (رقم:٣٢).
(٥) سورة البقرة، الآية: (١٦٥).
(٦) مسند الإمام أحمد (٤ ٢٨٦)، وحسّنه العلاّمة الألباني في الصحيحة (رقم:١٧٢٨).

- والشرط السادس: القبول المنافي للردّ، فلا بدّ من قبول هذه الكلمة قبولا حقاً بالقلب واللسان، وقد قصّ الله علينا في القرآن الكريم أنباء من سبق ممن أنجاهم لقبولهم لا إله إلا الله، وانتقامه وإهلاكه لمن ردّها ولم يقبلها. قال تعالى: ﴿ثمّ ننجّي رسُلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين﴾[1]، وقال - سبحانه - في شأن المشركين: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾[2].

- الشرط السابع: الانقياد المنافي للترك؛ إذ لا بد لقائل لا إله إلا الله أن ينقاد لشرع الله، ويذعن لحكمه، ويسلم وجهه إلى الله؛ إذ بذلك يكون متمسكا بـ لا إله إلا الله، ولذا يقول تعالى: ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾[3]، أي: فقد استمسك بـ لا إله إلا الله. فاشترط سبحانه الانقياد لشرع الله، وذلك بإسلام الوجه له سبحانه.

فهذه هي شروط لا إله إلا الله، وليس المراد منها عدّ ألفاظها وحفظها فقط. فكم من عاميٍّ اجتمعت فيه والتزمها ولو قيل له: اعددها لم يُحسن ذلك. وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيرا فيما يناقضها. فالمطلوب إذا العلم والعمل معا ليكون المرء بذلك من أهل لا إله إلا الله صدقا، ومن أهل كلمة التوحيد حقا. والموفّق لذلك والمعين هو الله وحده.

---

(١) سورة يونس، الآية: (١٠٣).

(٢) سورة الصافات، الآية: (٣٥، ٣٦).

(٣) سورة لقمان، الآية: (٢٢).

•المطلب الرابع: نواقض شهادة أن لا إله إلاّ ا لله

لقد مرّ معنا شروطُ كلمة التوحيد لا إلــه إلا ا لله الـتي لا بـد مـن توفّرهـا في العبد لتكون مقبولةً منه عند ا لله، وهي شروطٌ عظيمةُ الشأن، جليلةُ القدر يجب على كلِّ مسلم أن يُعنى بها عنايةً كبيرةً، ويهتمّ بها اهتماماً بالغاً، وإنّ مما ينبغـي أن يهتم به المسلم في هذا الباب العظيم معرفةَ نواقض هذه الكلمة ليكـون منهـا على حذر، فإنّ ا لله ـ تبارك وتعالى ـ قد بيّن في كتابه سبيل المؤمنين المحقّقين لهـذه الكلمة مفصّلة، وبيّن سبيل المجرمين المخالفين لهـا مفصّلـة، وبيّـن سـبحانه عاقبـة هؤلاء وعاقبة هؤلاء، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، والأسباب الـتي وفـق بهـا هؤلاء والأسباب التي خذل بها هـؤلاء، وجـلا ـ سـبحانه ـ الأمريـن في كتابـه وكشفهما وأوضحهما وبيّنهما غايةَ البيان، كمـا قـال ـ سـبحانه ـ: ﴿وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾[1]، وقـال ـ سـبحانه ـ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[2]، ومن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبن له طريقهـم أوشـك أن يقع في بعض ما هم فيه من الباطل، ولذا قال أمير المؤمنين عمرُ بـنُ الخطـاب رضي الله عنه: « إنّما تُنقض عرى الإسلام عروةً عروةً إذا نشأ في الإسـلام مـن لم يعـرف الجاهلية »[3].

ولهذا جاءت النصوص الكثيرةُ في الكتاب والسنة المحذرةُ مـن أسـباب الـرّدة وسائر أنواع الشرك والكفر المناقضة لكلمة التوحيد لا إلـه إلا ا لله، وقـد ذكـر العلماء ـ رحمهم ا لله ـ في باب حكم المرتدّ من كتب الفقه: أنّ المسـلم قـد يرتـدُّ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٥٥).

(٢) سورة النساء، الآية: (١١٥).

(٣) انظر: الفوائد لابن القيم (ص: ٢٠١ وما بعدها).

عن دينه بأنواعٍ كثيرةٍ من النواقض إذا وقع فيها، أو في أيِّ شيء منها ارتدّ عن الدِّين وانتقل من الملّة، ولم ينفعه مجرّد التلفّظ بـ لا إله إلا الله؛ إذ إنّ هذه الكلمة العظيمة التي هي خير الذِّكر وأفضله لا تكون نافعة لقائلها إلا إذا أتى بشروطها واجتنب كلَّ أمر يُناقضها.

وما من ريب أنَّ في معرفة المسلم هذه النواقض فائدةً عظيمةً في دينه، إذا عرفها معرفة يقصد من ورائها السلامة من هذه الشرور، والنجاة من تلك الآفات، ولهذا فإنّ من عَرَفَ الشركَ والكفرَ والباطلَ وطرقَه وأبغضها وحذرها وحذّر منها ودفعها عن نفسه ولم يدعها تخدش إيمانه، بل يزداد بمعرفتها بصيرة في الحق ومحبة له، وكراهة لتلك الأمور ونفرةً عنها كان له في معرفته هذه من الفوائد والمنافع ما لا يعلمه إلا الله، والله - سبحانه - يُحبُّ أن تُعرف سبيلُ الحق لتُحب وتُسلك، ويحب أن تُعرف سبيل الباطل لتُجتنب وتُبغض؛ إذ إنّ المسلم كما أنَّه مطالب بمعرفة سبيل الخير ليطبّقها، فهو كذلك مطالب بمعرفة سبل الشر ليحذرها، ولهذا ثبت في الصحيحين عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ أنَّه قال: كان الصحابة يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني[1]. ولهذا ـ أيضاً ـ قيل:

عرفت الشرَّ لا للشرِّ لكن لتوقِّيه ومن لم يعرف الشرَّ من الناس يقع فيه

وإذ كان الأمر بهذه الحال وعلى هذا القدر من الأهمية فإنّ الواجب على كلِّ مسلم أن يعرف الأمور التي تناقض كلمة التوحيد لا إله إلا الله ليكون منها على حذر، وهي كما تقدّم تنتقض بأمورٍ كثيرةٍ، إلا أنَّ أشدَّ هذه النواقض خطرًا وأكثرها وقوعاً عشرةُ نواقض ذكرها غيرُ واحد من أهل العلم ـ رحمهم

(١) صحيح البخاري (رقم:٣٦٠٦)، وصحيح مسلم (رقم:١٨٤٧).

الله ـ[1]، وفيما يلي ذكرٌ لها على سبيل الإيجاز، ليحذرها المسلم وليحذّر منها غيره من المسلمين رجاءَ السلامة والعافية منها.

أما الأول: فهو الشرك في عبادة الله، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[2]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[3]، ومن ذلك دعاءُ الأموات والاستغاثةُ بهم، والنذرُ والذبحُ لهم، ونحو ذلكَ.

الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكّل عليهم فقد كفر إجماعاً، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4].

الثالث: من لم يُكفّر المشركين أو شكَّ في كفرهم أو صحّح مذهبهم كَفر.

الرابع: من اعتقد أنّ هدي غير النبي ﷺ أكملُ من هديه، أو أنّ حكم غيره أحسنُ من حكمه، فهو كافرٌ؛ كالذين يفضّلون حكم الطاغوت على حكمه سبحانه وتعالى.

الخامس: من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به فقد كفر؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[5].

السادس: من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه كفر،

---

(١) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/٢٣٢ وما بعدها).

(٢) سورة النساء، الآية: (٤٨).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٧٢).

(٤) سورة يونس، الآية: (١٨).

(٥) سورة محمد، الآية: (٩).

والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[1].

السابع: السحرُ، ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به كفر، والدليل قوله - تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[2].

الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله -تعالى-: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3].

التاسع: من اعتقد أنّ بعض الناس يسعُه الخروج عن شريعة محمد ﷺ، فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[4].

العاشر: الإعراض عن دين الله لا يتعلّمه ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[5].

فهذه عشرة أمور من نواقض كلمة التوحيد لا إله إلا الله، فمن وقع في شيء منها - والعياذ بالله - انتقض توحيده، وانهدم إيمانه، ولم ينتفع بقوله: لا إله إلا الله. وقد نصّ أهل العلم على أنه لا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد، والخائف إلا المكره، وجميع هذه النواقض هي من أعظم ما يكون خطرا، وأكثر ما يكون وقوعاً، فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه. نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه، ونسأله - سبحانه - أن يوفّقنا جميعا لما يرضيه، وأن يهدينا وجميع المسلمين صراطه المستقيم، إنّه سميعٌ مجيبٌ قريبٌ.

---

(١) سورة التوبة، الآية: (٦٥، ٦٦).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٠٢).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٥١).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (٨٥).

(٥) سورة السجدة، الآية: (٣٢).

المبحث الثالث:

في التسبيح فضله ومكانته ومدلوله

•المطلب الأول: فضل التسبيح

إنَّ التسبيح له شأن عظيم ومكانة رفيعة؛ إذ هو أحد الكلمات الأربع التي وصفها رسول ا لله ﷺ بأنَّها خيرُ الكلام وأحبُّه إلى ا لله، وذلك في قوله ﷺ: ((أحبّ الكلام إلى ا لله أربع: سبحان ا لله، والحمد لله، و لا إله إلا ا لله، وا لله أكبر))[1]، وقد مرّ معنا جملة طيّبة من أحاديث النبيّ ﷺ في تفضيل هؤلاء الكلمات، وبيان ما لهنّ من منزلةٍ عاليةٍ ومكانةٍ رفيعةٍ.

وكلمة: سبحان ا لله، التي هي إحدى هؤلاء الكلمات لها شأن عظيم، فهي من أجلِّ الأذكار المقربة إلى ا لله، ومن أفضل العبادات الموصلة إليه، وقد جاء في بيان فضلها وشرفها وعِظم قدرها نصوصٌ كثيرة في الكتاب والسنة، بل إنّ ما ورد في ذلك لا يُمكن حصرُه لكثرته وتعدّده، وقد ورد ذكر التسبيح في القرآن الكريم أكثر من ثمانين مرة، بصِيغ مختلفة وأساليب متنوّعة، فورد تارة بلفظ الأمر كما في قوله -تعالى-:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[2]، وتارة بلفظ الماضي كما في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[3]، وتارة بلفظ المضارع كما في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾[4]، وتارة بلفظ المصدر كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢١٣٧).
(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٤١ - ٤٢).
(٣) سورة الحشر، الآية: (١).
(٤) سورة الجمعة، الآية: (١).

وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[1].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى التسبيح في مُفتتح ثَماني سُوَر من القرآن الكريم، فقال تعالى في أول سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[2]، وقال - تعالى - في أول سورة النحل: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3]، وقال - تعالى - في أوّل سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[4]، وقال - تعالى - في أوّل سورة الحشر: ﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[5]، وقال - تعالى - في أول سورة الصف: ﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[6]، وقال - تعالى - في أول سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾[7]، وقال - تعالى - في أول سورة التغابن: ﴿يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[8]، وقال - تعالى - في أول سورة الأعلى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الذي خَلَقَ فَسَوَّى وَالذي قَدَّرَ فَهَدَى وَالذي أَخْرَجَ المَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾[9].

قال بعض أهل العلم[10]: والتسبيح ورد في القرآن على نحو من ثلاثين

---

(١) سورة الصافات، الآية: (١٨٠ - ١٨٢).
(٢) سورة الإسراء، الآية: (١).
(٣) سورة النحل، الآية: (١ - ٢).
(٤) سورة الحديد، الآية: (١).
(٥) سورة الحشر، الآية: (١).
(٦) سورة الصف، الآية: (١).
(٧) سورة الجمعة، الآية: (١).
(٨) سورة التغابن، الآية: (١).
(٩) سورة الأعلى، الآية: (١ - ٥).
(١٠) انظر: بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي (٢/٢٨٥ وما بعدها).

وجهاً، ستةٍ منها للملائكة، وتسعةٍ لنبيّنا محمد ﷺ، وأربعةٍ لغيره من الأنبياء، وثلاثةٍ للحيوانات والجمادات، وثلاثةٍ للمؤمنين خاصة، وستةٍ لجميع الموجودات.

أما التي للملائكة فمنها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، الآية[1]، وقوله: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[3].

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾[4].

وأما التي لنبيّنا ﷺ فمنها قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[5]، وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾[6]، وقوله - تعالى -: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[7].

وأما التي للأنبياء فقول الله - تعالى - لزكريا عليه السلام: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[8]، وقوله - تعالى - عن زكريا عليه السلام في وصيّته لقومه بالمحافظة على التسبيح: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[9]، وقوله - تعالى - عن يونس عليه السلام في إنجائه من ظلمات البحر وبطن الحوت لملازمته للتسبيح: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ

---

(١) سورة غافر، الآية: (٧).
(٢) سورة فصّلت، الآية: (٣٨).
(٣) سورة الأنبياء، الآية: (١٩ - ٢٠).
(٤) سورة الصافات، الآية: (١٦٥ - ١٦٦).
(٥) سورة الحجر، الآية: (٩٨ - ٩٩).
(٦) سورة الإنسان، الآية: (٢٦).
(٧) سورة النصر، الآية: (٣).
(٨) سورة آل عمران، الآية: (٤١).
(٩) سورة مريم، الآية: (١١).

﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

وأما التي للمؤمنين فقوله -تعالى- : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[2]، وقوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[3]، وقوله - تعالى -: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾[4]، الآية.

وأما التي في الحيوانات والجمادات فمنها قوله -تعالى-: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[5]، وقوله - تعالى -: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾[6]، وقوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[7].

وأما التي لعموم المخلوقات فمنها قوله - تعالى-: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[8]، وقوله - تعالى -: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[9].

---

(١) سورة الصافات، الآية: (١٤٣، ١٤٤).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٤١، ٤٢).

(٣) سورة السجدة، الآية: (١٥).

(٤) سورة النور، الآية: (٣٦، ٣٧).

(٥) سورة الإسراء، الآية: (٤٤).

(٦) سورة ص، الآية: (١٨، ١٩).

(٧) سورة النور، الآية: (٤١).

(٨) سورة الحشر، الآية: (١).

(٩) سورة التغابن، الآية: (١).

وقد ذكر الله ـ تعالى ـ لفظة ﴿سُبْحَانَ﴾ في القرآن في خمسة وعشرين موضعاً، في ضمن كلٍّ واحد منها إثباتُ صفةٍ من صفات المدح، أو نفيُ صفة من صفات الذم[1]، منها قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾[2]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[3]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾[5]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[6]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[7].

فهذه النصوص القرآنية الكريمة وما جاء في معناها في كتاب الله تدل أوضح دلالة على جلالة قدر التسبيح، وعظيم شأنه من الدين، وأنَّه من أجلِّ الأذكار المشروعة، ومن أنفع العبادات المقربة إلى الله ﷻ.

وقد دلّت السنة النبوية ـ أيضا ـ على فضل التسبيح وعظيم مكانته عند الله من وجوه كثيرة، بل إنّ السنة مليئةٌ بالنصوص الدّالة على عظيم شأن التسبيح، وشريف قدره، وجزيل ثواب أهله، وبيان ما أعدّ الله لهم من أجور كريمةٍ، وأفضال عظيمةٍ، وعطايا جمّة. وقد تضمّنت تلك النصوص الدلالةَ على

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي (٣/١٧٦).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١١٦).

(٣) سورة الصافات، الآية: (١٨٠ ـ ١٨٢).

(٤) سورة الطور، الآية: (٤٣).

(٥) سورة الروم، الآية: (١٧، ١٨).

(٦) سورة الزخرف، الآية: (٨٢).

(٧) سورة يونس، الآية: (١٠).

ذلك من وجوهٍ كثيرةٍ:

ومن ذلك أنّ النبيّ ﷺ أخبر أنّ التسبيح أفضل الكلام وأحبُّه إلى ا لله، وقد سبق أنْ مرّ معنا قولُ النبيّ ﷺ: « أحبُّ الكلام إلى ا لله أربع: سبحان ا لله، والحمد لله، ولا إله إلاّ ا لله، وا لله أكبر »[1].

وثبت في صحيح مسلم من حديث أبي ذرٍّ أنّ رسول ا لله ﷺ سُئِل: أيُّ الكلام أفضل ؟ قال : « ما اصطفى ا لله لملائكته أو لِعباده : سبحان ا لله وبحمده »[2].

وفي لفظ آخر للحديث أنّ أبا ذرّ قال: قال رسول ا لله ﷺ: « ألا أُخبرُك بأحبّ الكلام إلى ا لله؟ قلتُ: يا رسول ا لله أخبرني بأحبّ الكلام إلى ا لله. قال: إنّ أحبَّ الكلام إلى ا لله: سبحان ا لله وبحمده »[3]. فدلّ هذا الحديث على عظيم مكانة هذه الكلمة عند ا لله ﷻ.

ومِن فضائل التسبيح ما أخبر به النبيُّ ﷺ أنّ مَن قال: سبحان ا لله وبحمده في يومٍ مائة مرّة حُطَّت عنه ذنوبُه ولو كثُرت. ففي الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ أنّ النبيَّ ﷺ قال: « مَن قال: سبحان ا لله وبحمده في يوم مائة مرّة حُطَّت خطاياه وإن كانت مِثلَ زَبَدِ البحر »[4].

وثبت عنه ﷺ أنّ من قالها في الصّباح مائة مرّة وفي المساء مائة مرّة، لم يأتِ أحدٌ يومَ القيامة بأفضلَ مما جاء به، إلاّ مَنقال مثل ذلك وزاد عليه. فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول ا لله ﷺ: « مَن قال حين يُصبحُ وحين يُمسي: سبحان ا لله وبحمده مائة مرّة لم يأتِ أحدٌ يومَ

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢١٣٧).
(٢) صحيح مسلم (رقم: ٢٧٣١).
(٣) صحيح مسلم (رقم: ٢٧٣١).
(٤) صحيح البخاري (رقم:٦٤٠٥)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩١).

القيامة بأفضلَ مما جاء به، إلاّ أَحدٌ قال مثل ما قال أو زاد عليه »[1].

وثبت عنه ﷺ أنّ من قالها في يومٍ مائة مرّة كُتبت له ألـفُ حسـنةٍ أو حُطّت عنه ألفُ خطيئةٍ، والحسنةُ بعشر أمثالها. روى مسلم في صحيحـه عـن سـعد بـن أبي وقّـاص ﷺ قـال: كُنّـا عنـد رسـول الله ﷺ فقـال: « أيَعجـزُ أحدُكـم أن يكسب كلّ يوم ألفَ حسنةٍ؟ فسأله سـائلٌ مـن جلسـائِه: كيـف يكسـب أحدُنـا ألفَ حسنةٍ؟ قال: يسبّح مائة تسبيحة فيُكتبُ له ألفُ حسنةٍ أو يُحطُّ عنـه ألـفُ خطيئةٍ »[2].

ومما ورد في فضل التسبيح إخبار النبيِّ ﷺ عن ثِقل التسـبيح في الميزان يـوم القيامة مع خفّة ويسر العمل به في الدنيا. ففي الصحيحين عن أبـي هريـرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « كلمتان حبيبتان إلى الرّحمن، خفيفتان على اللّسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم »[3].

وقوله ﷺ في الحديـث: « كلمتـان » هـي خـبرٌ مقَـدَّمٌ مُبتَـدَؤُه « سـبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم »، قال بعض أهل العلم: « والنكتـة في تقديـم الخـبر تشويقُ السّامع إلى المبتدأ، وكلّما طال الكلام في وصف الخبر حسُن تقديمه؛ لأنّ كثرةَ الأوصاف الجميلـة تزيـد السّـامع شـوقاً »[4]. وقـد وُصفـت الكلمتـان في الحديث بثلاثة أوصاف جميلةٍ عظيمةٍ، وهي: أنّهما حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتـان على اللسان، ثقيلتان في الميزان.

وقد خُصّ لفظ الرحمن بالذّكر هنا؛ لأنّ المقصود من الحديث بيانُ سعة رحمـة

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٦٩٢).

(٢) صحيح مسلم (رقم:٢٦٩٨).

(٣) صحيح البخاري (رقم:٦٤٠٦)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩٤).

(٤) فتح الباري لابن حجر (٥٤٠/١٣).

الله ـ تعالى ـ على عباده حيث يجازي على العمل القليل بالثواب الجزيل، والأجر العظيم، فما أيسرَ النطق بهاتين الكلمتين على اللسان، وما أعظم أجر ذلك وثوابه عند الكريم الرحمن، وقد وُصفت الكلمتان في الحديث بالخفّة والثقل، الخفّةِ على اللسان والثقلِ في الميزان، لبيان قلّة العمل وكثرة الثواب. فما أوسعَ فضلَ الله! وما أعظمَ عطاءَه !

ومن فضائل هذه الكلمة العظيمة، ما رواه الترمذي، وابن حبّان، والحاكم، وغيرهم، من طريق أبي الزبير عن جابر ﷺ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: « من قال: سبحان الله العظيم وبحمده غُرست له نخلةٌ في الجنّةِ »[1]. وله شاهدان:

أحدهما: من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ موقوفاً، خرّجه ابن أبي شيبة في مصنّفه[2].

والآخر: من حديث معاذ بن سهل مرفوعاً، خرّجه الإمام أحمد في مسنده[3].

ومن فضائل هذه الكلمة ما رواه الطبراني، والحاكم، من حديث نافع بن جُبير بن مطعم، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: « مَن قال سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك، فقالها في مجلس ذكرٍ كانت كالطّابع يطبع عليه، ومَن قالها في مجلس لغو كانت كفّارة له ».

قال الحاكم: « هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه »، ووافقه الذهبي، وصحّحه العلاّمة الألباني[4].

---

(١) سنن الترمذي (رقم:٣٤٦٤)، وصحيح ابن حبان (رقم:٨٢٦،٨٢٧)، ومستدرك الحاكم(٥٠١/١)، وصححه العلاّمة الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم:٦٤).

(٢) المصنف (٥٦/٦).

(٣) المسند (٤٤٠/٣).

(٤) المعجم الكبير (رقم:١٥٨٦)، والمستدرك (٥٣٧/١)، والسلسلة الصحيحة (رقم:٨١).

وروى الترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: « مَن جلس في مجلس فكثُر فيه لغَطُه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهمّ ربّنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلاّ غُفر له ما كان في مجلسه ذلك »[1].

فهذه جملةٌ من الأحاديث الواردة في التسبيح والدّالة على عظيم فضله وثوابه عند الله، وفي أكثر هذه الأحاديث قُرن مع التسبيح حمدُ الله ـ تعالى ـ؛ وذلك لأنَّ التسبيح هو تنزيه الله عن النقائص والعيوب، والتحميدُ فيه إثباتُ المحامد كلّها لله ﷻ، والإثبات أكملُ مِنَ السّلب، ولهذا لم يَرد التسبيحُ مجرّداً، لكن ورد مقروناً بما يدلّ على إثبات الكمال، فتارةً يُقرنُ بالحمد كما في هذه النصوص، وتارةً يُقرنُ باسم من الأسماء الدّالة على العظمة والجلال، كقول: سبحان الله العظيم، وقول: سبحان ربّي الأعلى، ونحو ذلك[2].

والتنزيه لا يكون مدحاً إلاّ إذا تضمّن معنىً ثبوتيًّا، ولهذا عندما نزّه الله ـ تبارك وتعالى ـ نفسه عمّا لا يليق به ممّا وصفه به أعداء الرُّسل سلّم على المرسلين الذين يثبتون لله صفات كماله ونعوت جلاله على الوجه اللاّئق به، وذلك في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[3]، وفي هذه الآية ـ أيضاً ـ حمد الله نفسه بعد أن نزّهها؛ وذلكَ لأنّ الحمدَ فيه إثباتُ كمال الصفات، والتسبيحَ فيه تنزيه الله عن النّقائص والعيوب، فجمع في الآية بين التنزيه عن العيوب بالتسبيح وإثبات

---

(١) سنن الترمذي (رقم:٣٤٣٣)، وصحيح ابن حبان (رقم:٥٩٤)، والمستدرك (١/٥٣٦)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٦١٩٢).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص:٢٠٤).

(٣) سورة الصافات، الآيات (١٨٠ ـ ١٨٢).

الكمال بالحمد، وهذا المعنى يرد في القرآن والسنّة كثيراً، فالتسبيحُ والحمدُ أصلان عظيمان وأساسان متينان يقوم عليهما المنهجُ الحقُّ في توحيد الأسماء والصفات، وبا لله وحده التوفيق.

•المطلب الثاني: تسبيحُ جميع الكائنات لله

إنّ ا لله ـ تعالى ـ لكمال عظمته، ولتمام ملكه وعزّته، تسبِّحُ له جميعُ الكائنات، من سماء، وأرض، وجبال، وأشجار، وشمس، وقمر، وحيوان، وطير، وإنْ مِن شيءٍ إلاّ يُسبِّح بحمده.

يقول ا لله ـ تعالى ـ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[3]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾[4]، فهذه النصوص العظيمة تدلُّ دلالة ظاهرةً أنّ جميعَ الكائنات تسبِّح ا للهَ ﷻ، فالحيوانات تسبِّح لله، والنباتات تسبِّح لله، والجمادات تسبِّح لله، وإنْ مِن شيءٍ خلقه ا لله إلاّ يسبِّح بحمد ا لله ﷻ، وإنْ كُنّا لا نفقه تسبيحه، وهو تسبيحٌ حقيقيٌّ يصدر من هذه الكائنات بلسان المقال، وليس بلسان الحال كما يدّعيه بعضهم، وا للهُ ـ جلَّ وعلا ـ يجعل لهذه الكائنات إدراكات تسبِّح بها يعلمها هو ـ جلَّ وعلا ـ ونحن لا نعلمها، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[5].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (٤٤).
(٢) سورة سبأ، الآية (١٠).
(٣) سورة الأنبياء، الآية: (٧٩).
(٤) سورة ص، الآية: (١٨).
(٥) سورة الإسراء، الآية: (٤٤).

قال الإمام أبو منصور الأزهريُّ ـ رحمه الله ـ في كتابه تهذيبُ اللغة: « ومما يدلُّك على أنّ تسبيح هذه المخلوقات تسبيحٌ تُعُبِّدت به، قول الله جلّ وعزّ للجبال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[1]، ومعنى أوّبي أي: سبِّحي مع داود النّهار كلّه إلى الليل، ولا يجوز أن يكون معنى أمر الله جلّ وعزّ للجبال بالتأويب إلاّ تعبُّداً لها، وكذلك قوله جلّ وعزّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾[2]، فسجود هذه المخلوقات عبادة منها لخالقها لا نفقهها عنها كما لا نفقه تسبيحها، وكذلك قوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[3]، وقد علم الله هبوطها من خشيته، ولم يعرّفنا ذلك، فنحن نؤمن بما أعلمنا ولا ندّعي بما لم نكلّف بأفهامنا، من عِلْم فِعلِها كيفيّةً نحدّها »[4] اهـ. كلامه ـ رحمه الله ـ، وهو كلام عظيم وتقرير حسن.

وقال النووي ـ رحمه الله ـ بعد أن أشار إلى ما قيل في المراد بالتسبيح، قال: «والصحيح أنّه يسبِّح حقيقة، ويجعل الله ـ تعالى ـ فيه تمييزاً بحسبه »[5].

وهذا القول هو القول الحق في هذه المسألة بلا ريب، فالله ـ تبارك وتعالى ـ هو الذي بيده أزمّةُ الأمور، وهو القادرُ على كلِّ شيء، وهو ـ سبحانه ـ الذي أنطق كلَّ شيء، لا يتعاظمه أمر، ولا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

---

(١) سورة سبأ، الآية: (١٠).
(٢) سورة الحج، الآية: (١٨).
(٣) سورة البقرة، الآية: (٧٤).
(٤) تهذيب اللغة (٤/٣٤٠).
(٥) شرح صحيح مسلم (١٥/٢٦).

وأمّا قولُ من قال: إنّ هذا التسبيح ليس حقيقياً وإنّما هو تسبيح بلسان الحال فقط فهو قول مجانبٌ للحقيقةِ، بعيدٌ عن الصواب، ولا يعضُدُه دليل، بل الأدلّةُ صريحةٌ على عدم صحّته.

وليس هذا الأمر بأعجب من تسبيح الحصا في يد رسول الله ﷺ، وتسبيحُ الطعام وهو يُؤكل، وقد كان يسمع ذلك الصحابةُ رضي الله عنهم.

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « كنّا نعدُّ الآيات بركة وأنتم تعدّونها تخويفاً، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلّ الماءُ، فقال: اطلبوا فضلةً من ماء، فجاؤوا بإناء فيه ماءٌ قليل، فأدخل يدَه في الإناء ثم قال: حيَّ على الطهور المبارك، والبركة من الله، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل »[1].

فللّه ما أعظمها من آيةٍ تدلّ على كمال المرسِل سبحانه، وصدق المرسَل - صلوات الله وسلامه عليه -.

وروى الطبراني في المعجم الأوسط، وأبو نعيم في دلائل النبوة عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إنّي لشاهدٌ عند النبي ﷺ في حلقة وفي يده حصى فسبّحن في يده، وفينا أبو بكر وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ، فسمع تسبيحهنّ مَن في الحلقة، ثمّ دفعهنّ النّبيُّ ﷺ إلى أبي بكر فسبّحن مع أبي بكر، سمع تسبيحَهنَّ مَن في الحلقة، ثمّ دفعَهنَّ إلى النّبيِّ ﷺ فسبَّحن في يده، ثمّ دفعهنَّ النّبيُّ ﷺ إلى عمر فسبّحن في يده، وسمع تسبيحَهنَّ مَن في الحلقة، ثم دفعهنَّ النبيّ ﷺ إلى عثمان بن عفّان فسبَّحن في يده، ثمّ دفعهنّ إلينا فلم يسبّحن مع أحد منّا »[2].

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٣٥٧٩).

(٢) المعجم الأوسط (رقم:١٢٤٤)، ودلائل النبوة (٢/٥٥٥) للبيهقي، وانظر: دلائل النبوة لأبي القاسم التيمي (١/٤٠ وما بعدها) بتحقيق: مساعد الراشد، قوله: « فصل: في تسبيح الحصى في يده ﷺ ».

ولا شكّ أنّ تسبيح الحصى الصغار والطعام أعجبُ وأبلغُ من تسبيح الجبال، ولذا فإنّ المعجزة لنبيّنا محمد ﷺ في ذلك أبلغُ من المعجزة لنبيِّ الله داود عليه السلام في تسبيح الجبال معه.

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: « وأمّا تسبيح الطّير مع داود عليه السلام فتسبيح الجبال الصمّ أعجبُ مِن ذلك، وقد تقدّم في الحديث أنّ الحصا سبّح في كفِّ رسول الله ﷺ،قال ابن حامد: وهذا حديثٌ معروفٌ مشهورٌ، وكانت الأحجارُ والأشجارُ والمدرُ تسلّم عليه ﷺ.

وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود قال: « لقد كنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل » يعني بيد النبيِّ ﷺ، وكلّمه ذراعُ الشّاة المسمومة وأعلمه بما فيه من السُّمِّ، وشهدت بنبُوَّته الحيواناتُ الإنسيّة والوحشيّة ، والجمادات ـ أيضاً ـ كما تقدّم بسط ذلك كلّه ، ولا شكّ أنّ صدور التسبيح من الحصا الصغار الصمّ التي لا تجاويف فيها أعجبُ مِن صدور ذلك من الجبال لما فيها من التجاويف والكهوف، فإنّها وما شاكلها تردّد صدى الأصوات العالية غالباً كما قال عبد الله بن الزبير كان إذا خطب وهو أمير المدينة بالحرم الشريف تجاوبه الجبال أبو قبيس وزَرُود، ولكن من غير تسبيح، فإنّ ذلك من معجزات داود عليه السلام، ومع هذا كان تسبيح الحصا في كفِّ رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان أعجب »[1] اهـ. كلامه ـ رحمه الله ـ.

والشّاهد مِن ذلك كلّه هو أنّ هذه الكائنات تسبِّح الله ـ تعالى ـ تسبيحاً حقيقاً لا يفقهه النّاس ولا يسمعونه، وقد يشاء الله فيُسمِع بعض ذلك من يشاء مِن عباده كما في النصوص المتقدّمة.

ولا ريب أنّ في هذا أَعظمَ عبرةٍ وأجلَّ عِظةٍ للنّاس إذ تدبّروا في حال هذه

---

(١) البداية والنهاية (٦/٢٨٦).

الجبال وهي الحجارة الصلبة والصخور الصمّاء كيف أنَّها تسبِّح بحمد ربِّها وتخشع له وتسجد وتشفق وتهبط من خشيته، وكيف أنّها خافت من ربِّها وفاطرها وخالقها على شدّتها وعِظم خلقها من الأمانة إذ عرَضَها عليها وأشفقت من حملها.

قال ابن القيّم ـ رحمه الله ـ وهو يتحدّثُ عن هذا الباب العظيم: « فسبحان من اختصَّ برحمته من شاء مِن الجبال والرِّجال ... هذا وإنَّها لَتعلمُ أنّ لها موعدا ويوماً تنسف فيها نسفاً، وتصير كالعهن من هوله وعظمه، فهي مشفقةٌ من هول ذلك الموعد، منتظرةٌ له ... فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقّتُها وخشيتُها وتدكدكها من جلال ربِّها وعظمته، وقد أخبر عنها فاطرُها وباريها أنَّه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدّعت من خشية الله. فيا عجباً من مضغة لحمٍ أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويُذكرُ الرّبُّ فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب ... »[1].

فنسأل الله جلّت قدرته وتبارك اسمه أن يحييَ قلوبنا بالإيمان، وأن يعمُرَها بذكر الكريم الرحمن، وأن يعيذنا من الرّجيم الشيطان، إنّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

•المطلب الثالث: معنى التسبيح

لا ريب أنّ التسبيح يُعدُّ من الأصول المهمّة والأُسُس المتينة التي ينبني عليها المُعتَقَد فيما يتعلّق بمعرفة الربّ ـ تبارك وتعالى ـ وأسمائه وصفاته، إذ إنّ المُعتقَدَ في الأسماء والصفات يقوم على أصلين عظيمين وأساسين متينين هما الإثبات للصفات بلا تمثيل، وتنزيه الله عن مشابهة المخلوقات بلا تعطيل.

والتسبيح هو التنزيه، فأصل هذه الكلمة من السَّبح وهو البُعد، قال

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/٨٩).

الأزهري في تهذيب اللغة: « ومعنى تنزيه الله من السوء تبعيده منه، وكذلك تسبيحه تبعيده، من قولك: سبحتُ في الأرض إذا أبعدتَ فيها، ومنه قوله جلّ وعزّ: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1]، وكذلك قوله: ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾[2] »[3].

فالتسبيح هو إبعاذ صفات النقص من أن تُضاف إلى الله، وتنزيهُ الربّ سبحانه عن السوء وعمّا لا يليقُ به، « وأصلُ التسبيح لله عند العرب التنزيه له من إضافة ما ليس من صفاته إليه، والتبرئة له من ذلك »[4].

وقد ورد هذا المعنى في تفسير التسبيح في حديث يُرفع إلى النبيّ ﷺ إلاّ أنّ في إسناده كلاماً. فقد روى الحاكمُ في المستدرك عن عبد الرحمن ابن حمّاد، ثنا حفص ابن سليمان، ثنا طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبيه، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن تفسير سبحان الله، فقال: « هو تنزيه الله عن كلّ سوء ». قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقّبه الذهبي في تلخيصه للمستدرك بقوله: « بل لم يصح فإن طلحة منكر الحديث، قاله البخاري، وحفصٌ واهي الحديث، وعبد الرحمن، قال أبو حاتم: منكر »[5].

ورُوي الحديثُ من وجه آخر مرسلا.

وورد في هذا المعنى آثارٌ عديدةٌ عن السلف ـ رحمهم الله ـ، روى جملة منها الطبريُّ في تفسيره والطبرانيُّ في كتابه الدعاء في باب: تفسير سبحان الله[6]،

---

(١) سورة: يس، الآية: (٤٠).

(٢) سورة: النازعات، الآية: (٣).

(٣) تهذيب اللغة (٣٣٨/٤).

(٤) جامع البيان لابن جرير (٢١١/١).

(٥) المستدرك (٥٠٢/١).

(٦) الدعاء للطبراني (١٥٩١/٣ وما بعدها).

وغيرهما من أهل العلم، منها:

ما جاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: « سبحان الله: تنزيه الله - عزَّ وجلَّ - عن كُلِّ سُوء ».

وعن عبد الله بن بريدة أنَّ رجلاً سأل علياً رضي الله عنه عن سبحان الله فقال: « تعظيم جلال الله ».

وجاء عن مجاهد أنه قال: « التسبيح انكفاف الله من كلِّ سوء ». قال ابن الأثير في النهاية: « أي: تنزيهه وتقديسه ».

وعن ميمون بن مهران قال: « سبحان الله اسم يُعظِّمُ الله به، ويحاشى به من السوء ».

وعن أبي عبيدة معمر بن المثنّى قال: « سبحان الله: تنزيه الله وتبرئته ».

وعن محمد بن عائشة قال: « تقول العرب إذا أنكرت الشيء وأعظمته سبحان الله، فكأنّه تنزيه الله عز وجل عن كلِّ سوء، لا ينبغي أن يوصف بغير صفته».

والآثار في هذا المعنى عن السلف كثيرة.

ونقل الأزهري في كتابه تهذيب اللغة عن غير واحد من أئمّة اللغة تفسير التسبيح بالمعنى السابق وقال: « وجماعُ معناه بُعدُه - تبارك وتعالى - عن أن يكون له مثلٌ أو شريكٌ أو ضِدٌّ أو نِدٌّ »[1].

وبهذه النقول المتقدِّمة يتبيَّنُ معنى التسبيح والمراد به، وأنّه تنزيه الله عز وجل عن كلِّ نقص وعيبٍ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: ((والأمر بتسبيحه يقتضي تنزيهه عن كلِّ عَيبٍ وسُوءٍ، وإثباتَ المحامد التي يُحمد عليها،

---

(١) تهذيب اللّغة (٤/٣٣٩).

فيقتضي ذلك تنزيهه وتحميده وتكبيره وتوحيده »[1]. اهـ كلامه ـ رحمه الله ـ.

وبه يتبيّن أنّ تسبيحَ الله إنّما يكون بتبرئة الله وتنزيهه عن كلِّ سوء وعيبٍ، مع إثبات المحامد وصفات الكمال له سبحانه، على وجهٍ يليقُ به، أمّا ما يفعله المعطِّلةُ من أهل البدع كالمعتزلة وغيرهم من تعطيل للصفات وعدم إثبات لها وجحدٍ لحقائقها ومعانيها بحجة أنّهم يسبِّحون الله وينزِّهونه، فهو في الحقيقة ليس من التسبيح في شيء، بل هو إنكارٌ وجحودٌ، وضلالٌ وبهتانٌ، ولذا يقول ابن هشام النحوي في كتابه مغني اللبيب: « ألا ترى أنّ تسبيحَ المعتزلة اقتضى تعطيل كثير من الصفات »[2].

ويقول ابن رجب ـ رحمه الله ـ في معنى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[3] أي: « سبِّحه بما حمد به نفسه؛ إذ ليس كلُّ تسبيحٍ بمحمود، كما أنّ تسبيح المعتزلة يقتضي تعطيل كثير من الصفات »[4].

وقوله ـ رحمه الله ـ: « إذ ليس كلُّ تسبيح بمحمود » كلامٌ في غاية الأهميّة والدقّة؛ إذ إنّ تسبيح الله بإنكار صفاته وجحدها وعدم إثباتها أمرٌ لا يُحمد عليه فاعله، بل يُذمُّ غايةَ الذمِّ، ولا يكون بذلك من المسبِّحين بحمد الله، بل يكون من المعطّلين المنكرين الجاحدين، من الذين نزّه الله نفسه عن قولهم ووصفهم بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[5]. فسبّح الله نفسه عمّا وصفه به المخالفون للرسل، وسلّم على المَرسلين لسلامة ما قالوه في الله من النقص والعيب.

---

(١) دقائق التفسير لابن تيمية (٥/٥٩).
(٢) مغني اللبيب (١/١٤٠)، مع أنّه وقع في بعض ذلك، غفر الله له ورحمه.
(٣) سورة: الحِجر، الآية: (٩٨).
(٤) تفسير سورة النصر (ص:٧٣).
(٥) سورة: الصافات، الآيات: (١٨٠ ـ ١٨٢).

إنَّ تسبيحَ ا لله وتنزيهَه وتقديسَه وتعظيمَه يجب أن يكون وفق الضوابط الشرعيّة، وعلى ضوء الأدلّة النقليّة، ولا يجوز بحال أن يُبنى ذلك على الأهواء المجرّدة، أو الظنون الفاسدة، أو الأقيسة العقليّة الكاسدة كما هو الشأن عند أرباب البدع المعطّلين لصفات الربّ – سبحانه –، ومن كان يعتمد في باب التعظيم على هواه بغير هدى من ا لله، فإنَّه يزِلُّ في هذا الباب ويقع في أنواع من الباطل وصنوف من الضلال. جاء عن عبد الرحمن بن مهدي - رحمه ا لله - وقد ذُكر عنده أنّ الجهميّة ينفون أحاديث الصفات، ويقولون: ا لله أعظم من أن يوصف بشيء من هذا أنَّه قال: « قد هلك قوم من وجه التعظيم فقالوا: ا لله أعظم من أن ينزل كتاباً أو يرسل رسولاً ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيْءٍ﴾[1] ثم قال: هل هلكت المجوس إلاّ من جهة التعظيم ؟ قالوا: ا لله أعظم من أنْ نعبُدَه، ولكن نعبدُ من هو أقربُ إليه منّا، فعبدوا الشمس وسجدوا لها، فأنزل ا لله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[2] »[3].

وفي كلامه هذا - رحمه ا لله - إشارة إلى أنّ التعظيم والتنزيه إنْ لم يكن على هديِ الكتاب والسنة فإنّه يكون غاية التعطيل، ومنتهى الجحود والعياذ با لله، ومن يتأمّل حالَ الطوائف الضالّة والفرق المنحرفة التي سلكت في التنزيه والتعظيم هذا الطريق يجد أنهم لم يستفيدوا من ذلك سوى التنقّص لربّ العالمين وجحد صفات كماله ونعوت جلاله، حتى آل الأمر ببعضهم في التنزيه إلى الاعتقاد بأنّه ليس فوق العرش إله يُعبد ولا ربٌّ يُصلى له ويُسجدُ تعالى ا لله عمّا

(١) سورة: الأنعام، الآية: (٩١).

(٢) سورة: الزمر، الآية: (٣).

(٣) ذكره التيمي في الحجة في بيان المحجّة (١/٤٤٠).

يقولون، وسبحان الله عمّا يصفون.

إنّ التسبيحَ طاعةٌ عظيمةٌ وعبادةٌ جليلةٌ، والله ـ تبارك وتعالى ـ يحبُّ المسبّحين، والواجب على عبد الله المؤمن أن يكون في تسبيحه لربّه على هديٍ مستقيمٍ، فيُسبّح الله وينزّهه عن كلِّ ما لا يليقُ به من النقائص والعيوب ويُثبتُ له مع ذلك نعوتَ جلاله وصفات كماله، ولا يتجاوزُ في ذلك كلّه كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، كما قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «لا يُوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسولُه ﷺ لا يُتجاوَزُ القرآن والحديث»[1]. ومن كان على ذلك فهو على هديٍ قويمٍ، وعلى صراطٍ مستقيم.

---

(١) ذكره شيخ الإسلام في الحموية، انظر: مجموع الفتاوى (٥/٢٦).

المبحث الرابع: في الحمد، فضله وأنواعه ودلالته

•المطلب الأول: فضلُ الحمدِ والأدلّةُ عليه

تناولتُ فيما سبق بيان فضلِ كلمة التوحيد لا إله إلا الله وفضلِ التسبيح، وهما إحدى الكلمات الأربع التي وصفها رسول الله ﷺ بأنّها أحبّ الكلام إلى الله، وتناولتُ فيها جملة من الأمور المهمّة المتعلّقة بهاتين الكلمتين العظيمتين، وأبدأ الحديث هنا عن الحمد (حمد الله - تبارك وتعالى-)، فإنّ له شأنا عظيما وفضلاً كبيراً، وثوابُه عند الله عظيمٌ، ومنزلته عنده عالية.

فقد افتتح – سبحانه – كتابه القرآن الكريم بالحمد فقال: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وافتتح بعض السور فيه بالحمد، فقال في أول الأنعام: ﴿الحَمْدُ للهِ الذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، وقال في أوّل الكهف: ﴿الحَمْدُ للهِ الذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجَا﴾، وقال في أول سبأ: ﴿الحَمْدُ للهِ الذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾، وقال في أول فاطر: ﴿الحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وافتتح خلقه بالحمد فقال: ﴿الحَمْدُ للهِ الذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[1]، واختتمه بالحمد فقال بعد ما ذكر مآل أهل الجنةَ وأهل النار: ﴿وَتَرَى المَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[2]، وقال – تعالى –: ﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(١) سورة: الأنعام، الآية: (١).

(٢) سورة: الزمر، الآية: (٧٥).

الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[1].

فالحمد له – سبحانه – أوّله وآخره، وله الحمد في الأولى والآخرة أي: في جميع ما خلق وما هو خالق، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَهُوَ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿الحَمْدُ للهِ الذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾[3]، فهو سبحانه المحمود في ذلك كلّه كما يقول المصلي: « اللّهمّ ربّنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد ».

فهذه النصوص دالّة على شمول حمده – سبحانه – لخلقه وأمره، فهو سبحانه حمد نفسه في أول الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع، وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفرّده بالإلهية وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاة أحد من خلقه لحاجته إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الحَمْدُ للهِ الذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾[4]، وحمد نفسه على علوّه وكبريائه كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿فَلِلَّهِ الحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ العَالَمِينَ وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[5]، وحمد نفسه في الأولى والآخرة، وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوي والسفلي، ونبّه على هذا كلّه في كتابه في آيات عديدة تدل على تنوّع حمده –

---

(١) سورة: يونس، الآية: (١٠).
(٢) سورة: القصص، الآية: (٧٠).
(٣) سورة: سبأ، الآية: (١).
(٤) سورة: الإسراء، الآية: (١١١).
(٥) سورة: الجاثية، الآيات: (٣٦،٣٧).

سبحانه -، وتعدّد أسباب حمده، وقد جمعها ا لله في مواطن من كتابه، وفرّقها في مواطن أخرى ليتعرّف إليه عباده، وليعرفوا كيف يحمدونه وكيف يثنون عليه، وليتحبّب إليهم بذلك، ويحبّهم إذا عرفوه وأحبّوه وحمدوه[1].

وقد ورد الحمد في القرآن الكريم في أكثر من أربعين موضعاً، جُمع في بعضها أسباب الحمد، وفي بعضها ذُكرت أسبابه مفصّلةً، فمن الآيات التي جُمع فيها أسباب الحمد قوله تعالى: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمِينَ﴾، وقوله: ﴿لَهُ الحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ﴾[2]، وقوله: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[3].

ومن الآيات التي ذُكِر فيها أسباب الحمد مفصّلة قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾[4]، ففيها حمده على نعمة دخول الجنّة. وقوله - تعالى -: ﴿فَقُلِ الحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[5]، ففيها حمده على النصر على الأعداء والسلامة من شرّهم. وقوله - تعالى -: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[6]، ففيها حمده على نعمة التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده. وقوله - تعالى -: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[7]، ففيها حمده - سبحانه- على هبة الولد. وقوله - تعالى -: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ

---

(١) انظر: طريق الهجرتين لابن القيّم (ص:٢٢٨).

(٢) سورة: القصص، الآية: (٧٠).

(٣) سورة: سبأ، الآية: (١).

(٤) سورة: الأعراف، الآية: (٤٣).

(٥) سورة: المؤمنون، الآية: (٢٨).

(٦) سورة: غافر، الآية: (٦٥).

(٧) سورة: إبراهيم، الآية: (٣٩).

الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجاً﴾[1]، ففيها حمده – سبحانه – على نعمة إنزال القرآن الكريم قيّماً لا عوج فيه ﴿لِيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾[2]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾[3] ففيها حمده – سبحانه – لكماله وجلاله، وتنزّهه عن النقائص والعيوب، والآيات في هذا المعنى كثيرة، فالله ـ تبارك وتعالى ـ هو الحميد المجيد.

و « الحميد » اسم من أسماء الله الحسنى العظيمة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في أكثر من خمسة عشر موضعاً، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[4]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[5]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[6]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[7]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً﴾[8]، فهو ـ تبارك وتعالى ـ الحميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو ـ تبارك وتعالى ـ المستحق لكل حمد ومحبة وثناء لما اتصف

(١) سورة: الكهف، الآية: (١).
(٢) سورة: الكهف، الآية: (٢).
(٣) سورة: الإسراء، الآية: (١١١).
(٤) سورة: فاطر، الآية: (١٥).
(٥) سورة: البقرة، الآية: (٢٦٧).
(٦) سورة: لقمان، الآية: (٢٦).
(٧) سورة: الشورى، الآية: (٢٨).
(٨) سورة: النساء، الآية: (١٣١).

به من صفات الحمد التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال.

وكما أنّ القرآن الكريم قد دلّ على فضل الحمد وعِظم شأنه بأنواع كثيرة من الأدلة، فكذلك السنة مليئةٌ بذكر الأدلة على فضل الحمد وعِظم شأنه، وما يترتّب عليه من الفوائد والثمار والفضائل في الدنيا والآخرة، ونبيّنا ﷺ هو صاحب لواء الحمد، وهذه مفخرةٌ عظيمةٌ ومكانةٌ رفيعةٌ حظيَ بها ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواءُ الحمد ولا فخر، وما من نبيٍّ يومئذ آدم فمَن سواه إلاّ تحت لوائي، وأنا أول شافعٍ، وأوّل مشفّعٍ ولا فخر »[1]. فلمّا كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أحمدَ الخلائق لله، وأكملَهم قياماً بحمده أُعطي لواءَ الحمد، ليأوي إلى لوائه الحامدون لله من الأولين والآخرين، وإلى هذا أشار ﷺ عندما قال في الحديث: « وما من نبيٍّ يومئذ آدم فمَن سواه إلاّ تحت لوائي »، وهو لواءٌ حقيقيٌّ يحمله النبيُّ ﷺ يوم القيامة بيده ينضوي تحته وينضمّ إليه جميعُ الحمّادين من الأولين والآخرين، وأقربُ الخلق إلى لوائه أكثرُهم حمداً لله وذِكرا له وقياما بأمره، وأمّته ﷺ هي خيرُ الأمم، وهم الحمّادون الذين يحمدون الله على السرّاء والضرّاء، وقد رُوي في الحديث أن النبي ﷺ قال: « أوّلُ من يُدعى إلى الجنّة الحمّادون، الذين يحمدون الله في السرّاء والضرّاء »، رواه الطبراني في المعجم الكبير، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم في المستدرك، لكن في إسناده ضعف، وقد رواه ابن المبارك في الزهد بسند صحيح موقوفا على سعيد

---

(١) المسند (٣/٢)، وسنن ابن ماجه (رقم:٤٣٠٨)، وسنن الترمذي (٣٦١٥).

ابن جُبير - رحمه ا لله -[1].

وجاء في أثر يُروى عن كعب قال: « نجده مكتوباً محمّـدٌ رسـول ا لله ﷺ، لا فظٌّ ولا غليظٌ، ولا صخّابٌ بالأسواق، ولا يجزي بالسيّئة السـيّئة، ولكنـه يعفـو ويغفر، وأمّتُه الحمّادون يكبّرون ا لله ﷻ على كـلِّ نـجدٍ ، ويحمدونـه في كـلّ منزلة ... »، رواه الدارمي في مقدّمة سننه[2].

وفي الجَنّة بيتٌ يُقال له بيـتُ الحمـد، خُصَّ للذيـن يحمـدون ا لله في السـرّاء والضراء ويصبرون على مُرِّ القضاء، روى الترمذي بإسناد حسن عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول ا لله ﷺ: « إذا مات ولَدُ العبد قال ا لله - تعالى - لملائكتـه: قبضتُـم ولـدَ عبـدي؟ فيقولـون: نعـم. فيقـول: قبضتـم ثمـرة فـؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدَك واسترجع. فيقول ا لله - تعالى -: ابنوا لعبدي بيتاً في الجَنّة وسمُّوه بيتَ الحمد »[3]. فهذا حَمِـدَ ا لله على الضرّاء فنال بحمده هذه الرتبـة العليـة، ولكـن كيـف يبلـغ العبـدُ هـذه المنزلـة، وكيف يصل إلى هذه الدرجة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه ا لله -: « والحمـد علـى الضـرّاء يوجبـه مشهدان:

أحدهما: علم العبد بأنّ ا لله – سـبحانه – مسـتوجبٌ ذلـك، مسـتحقٌّ لـه بنفسه، فإنّه أحسنَ كلَّ شيء خلقــه، وأتقـن كـلَّ شـيء، وهـو العليـم الحكيـم، الخبير الرحيم.

والثاني : علمُه بأنّ اختيارَ ا لله لعبدِه المؤمـن خيرٌ من اختياره لنفسـه ، كما

---

(١) انظر: السلسة الضعيفة للألباني (٢/٩٤).

(٢) سنن الدارمي (١/١٦).

(٣) سنن الترمذي (رقم:١٠٢١)، وحسّنه العلاّمة الألباني في الصحيحة (رقم:١٤٠٨).

روى مسلمٌ في صحيحه وغيرُه عن النبي ﷺ أنَّه قال: « والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلاّ كان خيراً له، وليس ذلك لأحدٍ إلاّ للمؤمن، إن أصابته سرّاءُ شكرَ فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضرّاءُ صبر فكان خيراً له »[1]، فأخبر النبي ﷺ أنّ كلَّ قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السرّاء فهو خير له »[2]. اهـ.

فإذا عَلم ذلك العبدُ وتيقّنه أقبل على حمد الله في أحواله كلِّها في سرّائه وضرّائه، وفي شدّته ورخائه، ثم هو في حال شدّته لا ينسى فضلَ الله عليه وعطاءَه ونعمتَه.

جاء رجلٌ إلى يونس بن عبيد ـ رحمه الله ـ يشكو ضيقَ حاله، فقال له يونس: « أيسُرُّك ببصرك هذا مائةَ ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيديك مائة ألفٍ؟ قال: لا، قال: فبرجليك مائةُ ألفٍ؟ قال: لا. قال: فذكّره نعم الله عليه، فقال يونس: أرى عندك مئين الألوف وأنت تشكو الحاجة ».

وجاء عن سلمان الفارسي ﷺ أنّه قال: « إنّ رجلاً بُسط له من الدنيا فانتزع ما في يديه، فجعل يحمدُ الله ويثني عليه حتى لم يكن له فراشٌ إلاّ باريّةٌ[3]، قال: فجعل يحمدُ الله ويثني عليه، وبُسط لآخر من الدنيا فقال لصاحب الباريّة: أرأيتك أنت على ما تحمد الله؟ قال: أحمده على ما لو أُعطيت به ما أُعطي الخلق لم أعطِهم إيّاه . قال : وما ذاك ؟ قال: أرأيتك بصرك، أرأيتك

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٩٩٩) بلفظ: « عجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كلّه خير، وليس ذلك ....»، الحديث.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٤٣-٤٤).

(٣) الحصير المنسوج. القاموس المحيط (ص:٤٥٢).

لسانك، أرأيتك يديك، أرأيتك رجليك »[1].

وثبت في فضل الحمد ما رواه الترمذي وابن ماجه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله »[2]، فجعل - صلوات الله وسلامه عليه - حمد الله أفضل الدعاء، مع أنّ الحمد إنّما هو ثناءٌ على المحمود مع حبّه، ولهذا سُئل ابن عيينة - رحمه الله - عن هذا الحديث فقيل له: كأنّ الحمد لله دعاء؟ فقال: « أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت لعبد الله ابن جدعان يرجو نائلة:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حباؤك إن شيمتك الحياءُ

إذا أثنى عليك المرءُ يوما ... كفاه من تعرضه الثناءُ

كريم لا يغيره صباحٌ ... عن الخلق الجميل ولا مساءُ

فهذا مخلوقٌ اكتفى من مخلوق بالثناء عليه، فكيف بالخالق سبحانه ».

ويؤيّد هذا المعنى قولُ الله - تعالى -: ﴿وآخرُ دعْواهُمْ أنِ الحمْدُ للهِ ربّ العَالمينَ﴾[3]، فجعل الحمد دعاء.

قال ابن القيّم - رحمه الله -: « الدعاء يُراد به دعاءُ المسألة ودعاء العبادة، والمُثني على ربّه بحمده وآلائه داعٍ له بالاعتبارين، فإنّه طالبٌ منه، طالبٌ له، فهو الداعي حقيقة، قال تعالى: ﴿هُوَ الحيُّ لا إلهَ إلاّ هُوَ فادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لهُ الدّينَ الحَمْدُ للهِ ربِّ العَالمِينَ﴾[4] »[5].

(١) ذكرهما ابن القيّم في عدة الصابرين (ص:١٦٧).

(٢) سنن الترمذي (رقم:٣٣٨٣)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٨٠٠)، وحسّنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:١١٠٤).

(٣) سورة: يونس، الآية: (١٠).

(٤) سورة: غافر، الآية: (٦٥).

(٥) صيغ الحمد المطبوع باسم مطالع السعد (ص:٩٠).

وممّا ورد في فضل الحمد وعِظم ثوابه عند الله ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعريِّ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « الطَهور شطرُ الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاةُ نورٌ، والصدقةُ برهانٌ، والصَّبرُ ضِياءٌ، والقرآن حجّةٌ لك أو عليك، كلُّ الناس يغدو فبائعٌ نفسَه فمعتقُها أو موبقُها »[1].

فأخبر ﷺ في هذا الحديث عن عظيم فضل الحمد وعظيم ثوابه، وأنّه يملأ الميزان، وقد قيل: إنّ المراد بملئه الميزان أي: لو كان الحمد جسماً لملأ الميزان، وليس بسديد، بل إنّ الله ﷻ يمثّل أعمال بني آدم وأقوالهم صُوَراً يوم القيامة وتوزن حقيقةً، ومن ذلك قوله ﷺ كما في الصحيحين: « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان، خفيفتان على اللسان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم »[2].

فالحمد شأنُه عظيمٌ، وثوابُه جزيلٌ، ويترتّب عليه من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلاّ الله، وأهله هم الحَريُّون يوم القيامة بأعلى المقامات وأرفع الرُّتب وأعلى المنازل، فإنّ الله ﷻ يحبُّ الحامدَ، ويحبُّ من عبده أن يُثنيَ عليه، ويرضى عن عبده أن يأكلَ الأكْلةَ فيحمده عليها، ويشربَ الشربَةَ فيحمده عليها، وهو ـ تبارك وتعالى ـ المانُّ عليهم بالنعمة والمتفضّل عليهم بالحمد، فهو يبذل نعمه لعباده، ويطلبُ منهم الثناءَ بها وذكرها والحمد عليها، ويرضى منهم بذلك شكراً عليها، وإن كان ذلك كلّه من فضله عليهم، وهو غير محتاج إلى شكرهم، لكنه يحبُّ ذلك من عباده حيث كان صلاحُ العبد وفلاحُه وكمالُه فيه، فللّه الحمد على نعمائه، وله الشكر على وافر فضله وجزيل عطائه حمداً كثيراً طيّباً مباركاً كما يحبُّ ربُّنا ويرضى.

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٢٣).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٦٠٤٩)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩٤).

•المطلب الثاني: المواطن التي يتأكّد فيها الحمد

لقد مرّ معنا بيانُ فضل الحمد وعظيم ثوابه من خلال النصوص الواردة في ذلك في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهي تدل على أنّ الحمد من أفضل الطاعات وأجلِّ القُربات التي يتقرّب بها العبدُ إلى الله ـ تعالى ـ.

والحمدُ مطلوبٌ من المسلم في كلِّ وقت وحين؛ إذ إنّ العبد في كلِّ أوقاته متقلّبٌ في نعمة الله، وهو ـ سبحانه ـ خالقُ الخلق ورازقهم، وأسبغ عليهم نعمَه ظاهرة وباطنة، دينية ودنيوية، ودفع عنهم النِّقم والمكاره، فليس بالعبادِ من نعمة إلاّ وهو مولّيها، ولا يدفع الشرَّ عنهم سواه، فهو سبحانه يستحقّ منهم الحمد والثناء في كلِّ وقتٍ وحين، كما أنّه سبحانه يستحقُّ الحمدَ لكمال صفاته، ولِما له من الأسماء الحسنى والنعوت العظيمة التي لا تنبغي إلاّ له، فكلُّ اسم من أسمائه، وكلُّ صفةٍ من صفاته يستحقُّ عليها أكملَ الحمد والثناء، فكيف بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العظيمة.

وكما أنّ الحمدَ مطلوبٌ من المسلم في كلِّ وقتٍ، إلاّ أنّ هناك أوقاتاً معيّنة وأحوالاً مخصوصةً تمرُّ بالعبد يكون فيها الحمدُ أكثرَ تأكيداً.

ومن هذه الأوقات والأحوال حمدُ الله في الخطبة وفي استفتاح الأمور، وفي الصلاة، وعقِب الطعام والشراب واللباس، وعند العطاس، ونحو ذلك من المواطن التي ورد في السنة تخصيصها بتأكّد الحمد فيها، ولعلّ من الحسن أن نقف مع بعض النصوص المشتملة على ذكر الأوقات والمواطن التي يتأكّد فيها الحمدُ ممّا وردت به سنّة النبي ﷺ.

ـ فمن هذه المواطنِ حمد الله عند الفراغ من الطعام والشرب، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ

تَعْبُدُونَ﴾[١]، روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إنّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلةَ فيحمدُه عليها ويشرب الشربة فيحمدُه عليها »[٢]، وروى الترمذي بإسناد حسن عن معاذ بن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « من أكل طعاما فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول منّي ولا قوّةٍ، غفر له ما تقدّم من ذنبه »[٣]، وروى البخاري عن أبي أمامة ﷺ: أنّ النبيّ ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: « الحمدُ لله حمدا كثيرا طيّبا مُباركا فيه، غير مكْفِيٍّ، ولا مُودّعٍ، ولا مستغنى عنه ربّنا »[٤]، وروى النسائي في السنن الكبرى بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن جُبير: أنّه حدّثه رجل خدمَ النبيّ ﷺ ثماني سنين أنّه كان يسمع النبيّ ﷺ إذا قرّب إليه طعاما يقول: « بسم الله »، وإذا فرغ من طعامه قال: « اللّهمّ أطعمتَ وسقيتَ وأغنيتَ وأقْنيتَ وهديتَ وأحييتَ، فلك الحمد على ما أعطيتَ »[٥].

- ومن مواطن الحمد حمدُ الله في الصلاة، ولا سيّما عند الرفع من الركوع، ففي صحيح مسلم عن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه قال: « سمع الله لمن حمده، ربّنا لك الحمد ملءَ السموات وملءَ الأرض، وملءَ ما شئتَ من شيء بعد »[٦]، وفيه ـ أيضاً ـ عن أبي سعيد الخدري: أنّ رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع قال: « اللّهمّ ربّنا لك الحمد، ملءَ السموات وملءَ الأرض، وملءَ ما شئت من شيء بعد، أهلَ

---

(١) سورة: البقرة، الآية: (١٧٢).

(٢) صحيح مسلم (رقم:٢٧٣٤).

(٣) سنن الترمذي (رقم:٣٤٥٨)، وحسّنه العلاّمة الألباني في الإرواء (٧/٤٨).

(٤) صحيح البخاري (رقم:٥٤٥٩).

(٥) السنن الكبرى (رقم:٦٨٩٨).

(٦) صحيح مسلم (رقم:٧٧١).

الثناء والمجد، أحقُّ ما قال العبدُ، وكلّنا لك عبد، اللّهمَّ لا مانع لما أعطيت، ولا معطيَ لما منعتَ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدّ »[1]، وروى البخاري في صحيحه عن رفاعة بن رافع الزُّرَقيِّ ﷺ قال: كنّا نصلي وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه من الركوع قال: « سمع الله لمن حمده »، قال رجلٌ وراءه: ربّنا لك الحمد حمدا كثيرا طيّباً مباركا فيه، فلمّا انصرف قال: « مَن المتكلّم؟ » قال: أنا، قال: « قد رأيتُ بضعة وثلاثين مَلَكا يبتدرونها أيّهم يكتبها أوّل »[2]، وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّ النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: « اللّهمّ لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمدُ أنت قيُّوم السموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت الحقُّ، ووعدُك حقٌّ، ولقاؤُك حقٌّ، والجنّةُ حقٌّ، والنار حقٌّ، والنبيّون حق ... »، إلى آخر الحديث[3]. وروى مسلمٌ في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال: بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ قال رجلٌ: الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بُكرة وأصيلا، فقال النبي ﷺ: « مَن القائل كذا وكذا؟ » فقال رجل من القوم: أنا قلتُها يا رسول الله. قال: « عجبتُ لها فُتحت لها أبواب السماء »، قال ابن عمر: فما تركتها منذ سمعت رسول الله يقولهنّ[4].

ـ ومن المواطن التي يتأكّد فيها الحمد حمدُ الله في ابتداء الخُطب والدروس، وفي ابتداء الكتب المصنّفة ونحو ذلك، روى أهل السنن عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: علّمنا رسول الله ﷺ خُطبة الحاجة: « الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضلّ له،

(١) صحيح مسلم (رقم:٤٧٧).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٧٩٩).
(٣) صحيح البخاري (رقم:١١٢٠)، وصحيح مسلم (رقم:٧٦٩).
(٤) صحيح مسلم (رقم:٦٠١).

ومن يُضللّ فلا هادي له »[1]، ويُستحبّ البدء به في تعليم الناس وفي الخطب سواءً كانت خطبةَ نكاح أو خطبةَ جمعة أو غيرهما.

كما يُستحبُّ الحمد عند حصول نعمة أو اندفاع مكروه، سواءً حصل ذلك للحامِد نفسه أو لقريبه أو لصاحبه أو للمسلمين، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: « أنّ النبي ﷺ أُتي ليلة أُسريَ به بقدحين من خمر ولبن، فنظر إليهما فأخذ اللبن، فقال له جبريل ﷺ: الحمد لله الذي هداك للفطرة، لو أخذتَ الخمر غوَت أُمَّتك »[2]، وفي سنن أبي داود والنسائي بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أنَّ النبي ﷺ كان إذا استجدَّ ثوباً سمّاه باسمه عِمامة أو قميصاً أو رداء ثم يقول: « اللّهمّ لك الحمد أنتَ كسوتنيه أسألك خيرَه وخيرَ ما صُنع له، وأعوذ بك من شرِّه وشرِّ ما صُنع له »[3].

- ويتأكّد الحمدُ إذا عطس العبدُ، والعطاس نعمة عظيمة من نعم الله على عباده؛إذ به يزول المحتقن في الأنف، والذي قد يكون في بقائه أذى أو ضررٌ على العبد، ولهذا يتأكّد على العبد حمدُ الله على هذه النعمة، روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « إذا عطس أحدكم فليقُل: الحمد لله، وليَقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلحُ بالَكم »[4].

ويُستحب للمسلم أن يحمد الله إذا رأى مبتلىً بعاهةٍ أو نحوها ، ففي الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « مَن رأى مبتلًى فقال: الحمد

---

(١) سنن النسائي (٦/٨٩)، وسنن الترمذي (رقم:١١٠٥)، وسنن أبي داود (رقم:٢١١٨)، وسنن ابن ماجه (١٨٩٢)، وانظر تخريج الحديث والكلام عليه « خطبة الحاجة » للألباني يرحمه الله.

(٢) صحيح مسلم (رقم:١٦٨).

(٣) سنن أبي داود (رقم:٤٠٢٠)، والسنن الكبرى النسائي (رقم:١٠١٤١).

(٤) صحيح البخاري (رقم:٦٢٢٤).

لله الذي عافاني ممّا ابتلاك به وفضّلني على كثير ممّن خلق تفضيلاً لم يصبه ذلك البلاءُ »[1].

كما ينبغي للمسلم أن يكون حامداً لله في سرّائه وضرّائه، وفي شدّته ورخائه، وفي سائر شؤونه، وروى ابن ماجه في سننه، والحاكم في مستدركه عن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى ما يحبّه قال: « الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات »، وإذا رأى ما يكره قال: « الحمد لله على كلِّ حال »[2].

•المطلب الثالث: في بيان موجبات الحمد، وأنواعه

لا ريب أنَّ الحمدَ كلَّه لله ربِّ العالمين، فإنّه سبحانه المحمود على كلِّ شيء، وهو المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، والحمدُ أوسعُ الصفات وأعمُّ المدائح وأعظم الثناء، والطرقُ إلى العلم به في غاية الكثرة؛ لأنَّ جميعَ أسمائه ـ تبارك وتعالى ـ حمدٌ، وصفاته حمدٌ، وأفعاله حمدٌ، وأحكامه حمدٌ، وعدله حمدٌ، وانتقامه من أعدائه حمدٌ، وفضله وإحسانه إلى أوليائه حمدٌ، والخلق والأمر إنّما قام بحمده ووُجد بحمده وظهر بحمده، وكان الغاية منه هي حمده، فحمدُه سبحانه سبب ذلك وغايته ومظهره وحامله، فحمده روح كلِّ شيء، وقيامُ كلّ شيء بحمده، وسريان حمده في الموجودات وظهور آثاره أمرٌ مشهودٌ بالأبصار والبصائر.

وقد نبّه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأنْ حَمِدَ نفسَه في أول الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع، وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على

---

(١) سنن الترمذي (رقم:٣٤٣٢)، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (رقم:٦٢٤٨).

(٢) سنن ابن ماجه (رقم:٣٨٠٣)، والمستدرك (٤٩٩/١)، وصححه العلاّمة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٤٧٢٧).

تفرّده بالإلهية وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق به من اتخاذ الولد والشريك إلى غير ذلك من أنواع ما حمد الله به نفسه في كتابه.

ولهذا فإنّ من الطرق العظيمة الدالة على شمول معنى الحمد وتناوله لجميع الأشياء معرفةَ العبد لأسماء الربّ ـ تبارك وتعالى ـ وصفاته، وإقرارَه بأنّ للعالَم إلهاً حيًّا جامعاً لكلّ صفة كمال، واسمٍ حسن وثناء جميل وفعل كريم، وأنّه سبحانه له القدرة التامَّةُ والمشيئةُ النافذة والعلم المحيط، والسمعُ الذي وسع الأصوات، والبصرُ الذي أحاط بجميع المبصرات، والرحمة التي وسعت جميع المخلوقات، والملكُ الكامل الذي لا يخرج عنه ذرّة من الذرّات، والغنى التامُّ المطلق من جميع الجهات، والحكمة البالغة المشهودة آثارها في الكائنات، والعزّة الغالبة بجميع الوجوه والاعتبارات، والكلمات التامّات النافذات التي لا يجاوزهنّ بَرٌّ ولا فاجر من جميع البريّات، واحدٌ لا شريك له في ربوبيّته ولا في إلهيته، ولا شبيه له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وليس له من يشركه في ذرّة من ذرّات ملكه، وهو ـ سبحانه ـ قيّوم السموات والأرضين إله الأولين والآخرين، ولا يزال – سبحانه – موصوفا بصفات الجلال، منعوتا بنعوت الكمال، منزّهاً عن أضدادها من النقائص والعيوب، فهو الحيّ القيوم الذي لكمال حياته وقيّوميّته لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم، مالكُ السموات والأرض الذي لكمال ملكه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، العالم بكلّ شيء الذي لكمال علمه يعلم ما بين أيدي الخلائق وما خلفهم، فلا تسقطُ ورقةٌ إلاَّ بعلمه، ولا تتحرّك ذرّةٌ إلاّ بإذنه، يعلم دبيبَ الخواطر في القلوب حيث لا يطلع عليه الملك، ويعلم ما سيكونُ منها حيث لا يطلع عليه القلب، البصير الذي لكمال بصره يرى تفاصيل خلق الذرّة الصغيرة وأعضاءَها ولحمَها ودمَها ومخَّها وعروقَها، ويرى دبيبَها على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، ويرى ما تحت الأرضين السبع، كما يرى ما فوق السموات السبع، السميعُ الذي قد استوى في سمعه سرُّ القول

وجهرُه، وسع سمعُه الأصوات فلا تختلف عليه أصوات الخلق ولا تشتبه عليه، ولا يُشغلُه منها سمع عن سمع، ولا تغلطُه المسائل، ولا يبرمُه كثرة السائلين، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «الحمد لله الذي وسع سمعُه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ، وإني ليخفى عليّ بعضُ كلامها، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[1] »، القديرُ الذي لكمال قدرته يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، ويجعل المؤمنَ مؤمناً والكافرَ كافراً، والبرَّ برًّا والفاجرَ فاجراً، ولكمال قدرته – سبحانه – لا يحيط أحدٌ بشيء من علمه إلاّ بما شاء أن يُعلمه إيّاه، ولكمال قدرته خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيّامٍ وما مسّه من لغوب، ولا يُعجزه أحدٌ من خلقه ولا يفوته، بل هو في قبضته أين كان، ولكمال غناه استحال إضافة الولد والصاحبة والشريك والشفيع بدون إذنه إليه، ولكمال عظمته وعلوّه وسعَ كرسيُّه السموات والأرض، ولم تسعه أرضُه ولا سمواتُه، ولم تُحط به مخلوقاته، بل هو العالي على كلِّ شيء، وهو بكلِّ شيء محيط، يقول الله ـ تعالى ـ في أوّل سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

---

(١) سورة: المجادلة، الآية: (١)، وحديث عائشة رواه أحمد في المسند (٦/٤٦)، وغيره، وصححه الألباني في تعليقه على السنة لابن أبي عاصم (رقم:٦٢٥).

لآيات لقوم يتقون إنّ الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾[1].

وهو ـ سبحانه ـ يحبُّ رسله ويحبُّ عباده المؤمنين وهم يحبُّونه ويحمدونه، بل لا شيء أحبُّ إليهم منه، ولا أشوق إليهم من لقاءه، ولا أقرّ لعيونهم من رؤيته، ولا أحظى عندهم من قربه، وهو ـ سبحانه ـ له الحكمة البالغة في خلقه وأمره، وله النعمة السابغة على خلقه، وكلُّ نعمةٍ منه فضلٌ، وكلُّ نقمةٍ منه عدلٌ، وهو ـ سبحانه ـ أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها، وأفرحُ بتوبة عبده من واجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقدها واليأس منها. وهو ـ سبحانه ـ رحيمٌ بعباده لم يُكلّفهم إلاّ وُسعهم وهو دون طاقتهم، فقد يطيقون الشيء ويضيق عليهم بخلاف وسعهم فإنّه ما يسعونه ويسهل عليهم ويفضل قدرهم عنه، ولا يعاقب – سبحانه – أحدا بغير فعله، ولا يعاقبه على فعل غيره، ولا يعاقبه بترك ما لا يقدر على فعله، ولا على فعل ما لا قدرة له على تركه، وهو ـ سبحانه ـ حكيمٌ كريمٌ جوادٌ ماجدٌ محسنٌ ودودٌ صبورٌ شكورٌ، يُطاعُ فيشكرْ، ويُعصى فيغفر، لا أحد أصبر على أذى سمعه منه، ولا أحد أحبُّ إليه المدح منه، ولا أحد أحبُّ إليه العذر منه، ولا أحد أحبُّ إليه الإحسان منه، فهو محسن يحبُّ المحسنين، شكور يحبُّ الشاكرين، جميلٌ يحب الجمال، طيّبٌ يحبُّ كلّ طيّب، عليم يحب العلماء من عباده، كريمٌ يحبُّ الكرماء، قويٌّ والمؤمن القويُّ أحبُّ إليه من المؤمن الضعيف، برٌّ يحبُّ الأبرار، عدلٌ يحبُّ أهل

---

(١) سورة: يونس، الآيات: (٣ ـ ١٠).

العدل، حييٌّ ستّيرٌ يحبُّ أهل الحياء والستر. وهو ـ سبحانه ـ يحبُّ أسماءَه وصفاته ويحبُّ المتعبِّدين له بها، ويحبُّ من يسأله ويمدحه بها، ويحبُّ من يعرفها ويعقلها ويثني عليه بها، ويحمده ويمدحه بها كما في الصحيح عن النبي ﷺ: « لا أحد أحبُّ إليه المدح من الله من أجل ذلك أثنى على نفسه، ولا أحد أغيرُ من الله من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبُّ إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشّرين ومنذرين »[1][2].

وبهذا يُعلم أنَّ من كان له نصيب من معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العليا الواردة في كتابه وسنّة رسوله ﷺ عَلِمَ تَمام العلم أنَّ الله لا يكون له من ذلك إلاَّ ما يوجب الحمد والثناء، فالحمد موجب أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحميدة، ولا يُخْبَرُ عنه – سبحانه – إلاَّ بالحمد، ولا يُثنى عليه إلاَّ بأحسن الثناء، كما لا يسمّى إلاَّ بأحسن الأسماء، فكلُّ صفة عليا واسم حسن وثناء جميل، وكلُّ حمدٍ ومدحٍ وتسبيحٍ وتنزيهٍ وتقديسٍ وإجلالٍ وإكرامٍ فهو لله ﷻ على أكمل الوجوه وأتمِّها وأدومِها. فسبحان الله وبحمده لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني به عليه خلقه. فله الحمد أولاً وآخراً حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه كما يُحبُّ ربُّنا الكريمُ ويرضى.

وبهذا ـ أيضاً ـ يتبيَّن أنَّ حمد الله نوعان : حمدٌ على إحسانه إلى عباده وهو من الشكر ، وحمدٌ لما يستحقُّه هو بنفسه من صفات كماله ونعوت جلاله سبحانه، وقد كان أكثر الحديث فيما سبق عن حمد الله على أسمائه الحسنى وصفاته العظيمة، وأنَّ عِلم العبد بها علماًصحيحاً هو من أعظم موجبات قيامه بحمد الله على أحسن وجه وأتمِّ حالٍ.

---

(١) صحيح مسلم (رقم: ٢٧٦٠).

(٢) انظر: طريق الهجرتين لابن القيِّم (ص: ٢١٠ - ٢٢٦).

وأمّا حمد الله على نعمه وآلائه، وهو النوع الثاني من أنواع الحمد، فقد ورد في شأنه نصوصٌ كثيرةٌ، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[3]، ويقول تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[4]، فنِعَمُ الله على عباده كثيرةٌ ومتنوّعةٌ، وكلُّ نعمةٍ منها موجبة لحمد المُنعم سبحانه، وكما أنّ أسباب الحمد وموجباته متنوّعةٌ متعدِّدةٌ، فكذلك الحمدُ تنوّع بتنوّعها وكثُر بكثرتها، وقد فصّل ابن القيّم ـ رحمه الله ـ الحديث عن هذا النوع في كتابه « طريق الهجرتين »، وذكر ـ رحمه الله ـ أنّ هذا النوع من الحمد حمد النّعم والآلاء مشهودٌ للخليقة برّها وفاجرها، مؤمنها وكافرها من جزيل مواهبه، وسعة عطاياه، وكريم أياديه، وجميل صنائعه، وحسن معاملته لعباده، وسعة رحمته لهم، وبرّه ولطفه وحنانه وإجابته لدعوات المضطرّين، وكشف كربات المكروبين، وإغاثة الملهوفين، ورحمته للعالمين، وابتدائه بالنعم قبل السؤال ومن غير استحقاق، بل ابتداءً منه بمجرّد فضله وكرمه وإحسانه، ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها، وصرفها بعد وقوعها، ولطفه تعالى في ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهداية خاصّته وعباده إلى سبيل دار السلام، ومدافعته عنهم أحسن الدفاع، وحمايتهم عن مراتع الآثام، وحبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان وجعلهم من الراشدين، وكتب في قلوبهم

---

(١) سورة: فاطر، الآية: (٣).

(٢) سورة: لقمان، الآية: (٢٠).

(٣) سورة: النحل، الآية: (٥٣).

(٤) سورة: إبراهيم، الآية: (٣٤).

الإيمان وأيدهم بروح منه، وسمّاهم المسلمين من قبل أن يخلقهم، وذكرهم قبل أن يذكروه، وأعطاهم قبل أن يسألوه، وتحبّب إليهم بنعمه مع غناه، وتبغضّهم إليه بالمعاصي وفقرهم إليه، ومع هذا كلّه فاتّخذ لهم دارا، وأعدّ لهم فيها من كلّ ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعين، وملأها من جميع الخيرات، وأودعها من النّعيم والحَبرة والسرور والبهجة ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر. ثم أرسل إليهم الرّسل يدعونهم إليها، ثم يسّر لهم الأسباب التي توصلهم إليها وأعانهم عليها، ورضي منهم باليسير في هذه المدّة القصيرة جدًّا بالإضافة إلى بقاء دار النعيم، وضمن لهم إن أحسنوا أن يثيبهم بالحسنة عشرا، وإن أساءوا واستغفروا أن يغفر لهم، ووعدهم أن يمحو ما جنوه من السيّئات بما يفعلونه بعدها من الحسنات وذكّرهم بآلائه، وتعرّف إليهم بأسمائه، وأمرهم بما أمرهم به رحمة منه بهم وإحسانا، لا حاجة منه إليهم، ونهاهم عمّا نهاهم عنه حماية وصيانة لهم لا بُخلا منه عليهم، وخاطبهم بألطف خطاب وأحلاه، ونصحهم بأحسن النصائح، ووصّاهم بأكمل الوصايا، وأمرهم بأشرف الخصال، ونهاهم عن أقبح الأقوال والأعمال، وصرّف لهم الآيات، وضرب لهم الأمثال، ووسع لهم طرق العلم به ومعرفته، وفتح لهم أبواب الهداية، وعرّفهم الأسباب التي تدنيهم من رضاه، وتبعدهم عن غضبه، ويخاطبهم بألطف الخطاب. ويسمّيهم بأحسن أسمائهم. كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾[1]، ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾[2]، ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ﴾[3]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾[4]، فيخاطبهم بخطاب الوداد والمحبّة

---

(١) سورة: النور، الآية: (٣١).

(٢) سورة: الزمر، الآية: (٥٣).

(٣) سورة: إبراهيم، الآية: (٣١).

(٤) سورة: البقرة، الآية: (١٨٦).

والتلطّف، كقوله: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾[1]، ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾[2]، ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك﴾[3]، وأكثرُ القرآن جاء على هذا النمطَ من خطابه لعباده بالتودّد والتحنّن واللطف والنصيحة البالغة.

يقول تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾[4]، قال ابن القيّم - رحمه الله -: «فتحت هذا الخطاب: إني عاديت إبليس وطردتُه من سمائي وباعدته من قربي؛ إذ لم يسجد لأبيكم آدم، ثم أنتم يا بنيه توالونه وذريّته من دوني وهم أعداؤكم، فليتأمّل اللبيبُ مواقع هذا الخطاب وشدّة لصوقه بالقلوب والتباسه بالأرواح.

ثم إنّه - سبحانه - قد أعلمَ عباده بأنه لا يرضى لهم إلاّ أكرمَ الوسائل وأفضلَ المنازل، وأجلَّ العلومِ والمعارف، قال تعالى: ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم﴾[5]، وقال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[6]، وقال: ﴿يريد الله

---

(١) سورة: البقرة، الآيات: (٢١، ٢٢).

(٢) سورة: لقمان، الآية: (٣٣).

(٣) سورة: الإنفطار، الآية: (٦).

(٤) سورة: الكهف، الآية: (٥٠).

(٥) سورة: الزمر، الآية: (٧).

(٦) سورة: المائدة، الآية: (٣).

بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[1]، وقال - تعالى -: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا﴾[2].

ثم هو – سبحانه – لم يخلق عباده لحاجة منه إليهم، ولا ليتكثَّر بهم من قلّة، ولا ليتعزَّز بهم من ذِلَّة، بل كما قال - سبحانه -: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[3]، وقال - سبحانه - عقب أمره لعباده بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد﴾[4]، فهو – سبحانه – غنيٌّ عما ينفقون أن يناله منه شيء، حميد مستحقٌّ المحامد كلّها، فإنفاق العباد لا يسدُّ منه حاجة ولا يوجب له حمداً، بل هو الغنيُّ بنفسه، الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته، وإنفاقُ العباد نفعه عائدٌ لهم وإحسانهم عائدٌ إليهم، كما قال — سبحانه —: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾[5]، وقال: ﴿ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون﴾[6]، وقال: ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها﴾[7] »[8].

---

(١) سورة: البقرة، الآية: (١٨٥).

(٢) سورة: النساء، الآيات: (٢٦ - ٢٨).

(٣) سورة: الذاريات، الآيات: (٥٦ - ٥٨).

(٤) سورة: البقرة، الآية: (٢٦٧).

(٥) سورة: الإسراء، الآية: (٧).

(٦) سورة: الروم، الآية: (٤٤).

(٧) سورة: يونس، الآية: (١٠٨).

(٨) انظر: طريق الهجرتين لابن القيّم (ص: ٢٣١ - ٢٣٧).

هذا ومن أراد مطالعة أصول النّعم وما توجبه من حمد الله وذكره وشكره وحسن عبادته فَلْيُدِمْ سرح الذِّكر في رياض القرآن الكريم، وليتأمّلِ ما عدّد الله فيه من نعمه وتعرّف بها إلى عباده من أول القرآن إلى آخره ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

وينبغي أن يُعلم هنا أنّ الحمد نفسه هو أفضل نعم الله على عباده، وهو أجل من نعم الله التي أنعم بها على العبد من رزقه وعافيته وصحته والتوسعةِ عليه في دنياه ونحو ذلك، ويشهد لهذا ما رواه ابنُ ماجه عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما أنعم الله على عبد بنعمة فقال: ((الحمد لله إلا كان ما أعطى أفضل مّما أخذ))[2].

وروي هذا ـ أيضاً ـ عن الحسن البصري موقوفاً عليه، رواه ابن أبي الدنيا في كتابه الشكر، وروى ابن أبي حاتم في تفسيره أنّ بعض عمال عمر بن عبد العزيز كتب إليه: إني بأرضٍ قد كثرت فيها النعم، حتى لقد أشفقتُ على أهلها من ضعف الشكر، فكتب إليه عمر: ((إنّي قد كنت أراك أعلم با لله مّما أنت، إنّ الله لم ينعم على عبده نعمة، فحمد الله عليها إلا كان حمدُه أفضلَ مِن نعمه، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل، قال الله ـ تعالى ـ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، وقال الله ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا

---

(١) سورة: الجاثية، الآيات: (٣٦،٣٧).

(٢) سنن ابن ماجه (رقم:٣٨٠٥)، وحسّنه العلاّمة الألباني كما في السلسلة الضعيفة (٥/٢٤).

(٣) سورة: النمل، الآية: (١٥).

﴿وَعْدَهُ﴾[1]، وأيُّ نعمة أفضل من دخول الجنة».

فهذا فيه أوضحُ دلالةٍ على أنّ حمدَ الله على النّعمة أفضلُ منَ النّعمة نفسها، وقد استشكل هذا بعضُ أهل العلم وقال: لا يكون فعلُ العبد أفضل من فعل الربّ ﷻ، أورد هذا الاستشكال ابنُ رجب في كتابه «جامع العلوم والحكم» وأجاب عنه جواباً وافياً مسدّداً فقال ـ رحمه الله ـ: «المرادُ بالنّعمِ النّعمُ الدنيويةُ، كالعافية والرزق والصحة ودفع المكروه ونحو ذلك، والحمدُ هو من النعمِ الدينية، وكلاهما نعمةٌ من الله، لكن نعمة الله على عبده بهدايته لشكر نعمه بالحمد عليها أفضل من نعمه الدنيوية على عبده، فإنّ النّعم الدنيوية إن لم يقترن بها الشكرُ كانت بليّة، كما قال أبو حازم: كلُّ نعمة لا تقرّب من الله فهي بلية. فإذا وفّق الله عبده للشكر على نعمه الدنيوية بالحمد أو غيره من أنواع الشكر كانت هذه النعمة خيراً من تلك النعم وأحبّ إلى الله ﷻ منها، فإنّ الله يحب المحامد، ويرضى عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها، والثناء بالنعم والحمد عليها وشكرها عند أهل الجود والكرم أحبُّ إليهم من أموالهم، فهم يبذلونها طلباً للثناء، والله ﷻ أكرمُ الأكرمين وأجودُ الأجودين، فهو يبذل نعمه لعباده، ويطلب منهم الثناء بها وذكرها والحمد عليها، ويرضى منهم بذلك شكراً عليها، وإن كان ذلك كلّه من فضله عليهم، وهو غيرُ محتاج إلى شكرهم، لكنّه يُحبُّ ذلك من عباده، حيث كان صلاحُ العبد وفلاحُه وكمالُه فيه، ومن فضله أنّه نسب الحمدَ والشكرَ إليهم، وإن كان من أعظم نعمه عليهم، وهذا كما أنّه أعطاهم ما أعطاهم من الأموال ثمّ استقرض منهم بعضَه ومَدَحَهم بإعطائه، والكلُّ ملكه، ومن فضله، ولكن كرمه اقتضى ذلك»[2]. اهـ كلامه ـ رحمه الله ـ.

---

(١) سورة: الزمر، الآية: (٧٣، ٧٤).
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/٨٢، ٨٣).

وبه يتبين معنى الحديث المتقدم: ((ما أنعم ا لله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ)) فالعبد أعطى الحمد، وحمده نفسه نعمة من ا لله عليه، ولولا توفيقُ ا لله وإعانتُه لما قام بحمده، فنعمة ا لله على عبده بتوفيقه للحمد أفضل من نعمة ا لله عليه بالصحة والعافية والمال ونحو ذلك، والكلُّ نعمة ا لله، قال ابن القيم ـ رحمه ا لله ـ: ((فنعمة الشكر أجَلُّ من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها))[1]. اهـ.

ولهذا فإنّ حمد ا لله ﷻ وشكره على نعمه هو بحَدِّ ذاته نعمةٌ عظيمةٌ تستوجب حمداً آخر وشكراً متجدداً.

روى ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن بكر بن عبد ا لله قال: « ما قال عبد قط الحمد لله إلا وجبت عليه نعمة بقوله: الحمد لله فما جزاء تلك النعمة؟ جزاؤها أن يقول الحمد لله فجاءت أخرى، ولا تنفد نعم ا لله ﷻ»[2].

ولذا قال الإمام الشافعي ـ رحمه ا لله ـ في حمد ا لله: « الحمد لله الذي لا تؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها »[3].

أي: إنَّ العبد إذا حمد ا لله فهذه نعمة أخرى حادثة تستوجب حمداً آخر .

قال ابن أبي الدنيا: أنشدني محمود الورّاق:

إذا كان شُكري نعمةَ ا لله نعمةً عَلَيَّ له في مثلِها يجبُ الشُّكرُ
فكيف وقوعُ الشكرِ إلاَّ بفضله وإن طالت الأيامُ واتَّصلَ العُمْرُ
إذا مسَّ بالسرَّاء عَمّ سرورُها وإذا مسَّ بالضرّاء أعقبها الأجْرُ
وما منهما إلاّ له فيه مِنّةٌ تَضِيقُ بِهَا الأَوْهامُ والبَرُّ والبحرُ[4]

---

(١) عدة الصابرين (ص:١٦٩).
(٢) الشكر (ص:١٧).
(٣) أورده ابن كثير في تفسيره (٢/٥٤٠).
(٤) الشكر (ص:٤٤).

وقال آخر في المعنى نفسه:

لو كلُّ جارحةٍ مِنّي لها لغةٌ تُثني عليكَ بما أوْلَيْتَ من حَسَنِ
لكان ما زاد شكري إذ شكرتُ به إليك أبلغَ في الإحسانِ والمِنَنِ[1]

فاللَّهمَّ لك الحمد شكراً، ولك المن فضلاً، لك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بالإيمان، ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة، لك الحمد بكلِّ نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث، أو سر أو علانية، أو خاصة أو عامة، لك الحمد على ذلك حمداً كثيراً، اللهم لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد ربَّنا إذا رضيت.

المطلب الرابع: أفضلُ صِيَغِ الحمد وأكملُها

تقدّم بيانُ فضل الحمد وعظم ثوابه عند الله، والإشارةُ إلى بعضِ صِيَغه الواردة في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول الكريم ﷺ، كقول: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمِينَ﴾، وقول: « الحمد لله حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه كما يحب ربّنا ويرضى »، ونحو ذلك مما ورد في القرآن الكريم مما حمد به الربُّ نفسه، وما ورد في سنة النبي الكريم ﷺ مما حمد به الرسول ﷺ ربَّه، وهي صيغٌ عظيمةٌ مشتملةٌ على أحسن الحمد وأكمله وأوفاه، وقد ذكر بعضُ أهل العلم أنَّ أفضل صيغ الحمد « الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده »، واحتجّ بما ورد عن أبي نصر التمّار أنه قال: قال آدم عليه السلام: يا رب شغلتَني بكسب يديّ فعلّمني شيئاً من مجامع الحمد والتسبيح، فأوحى الله إليه يا آدمُ إذا أصبحت فقل ثلاثاً وإذا أمسيت فقل ثلاثاً: « الحمد لله ربِّ العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، فذلك مجامع الحمد ».

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٢/٥٤٠).

وقد رُفع ذلك للإمام المحقق ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله ـ فأنكره على قائله غايةَ الإنكار وبيَّن ـ رحمه الله ـ أنَّ ذلك لم يَرِد عن النبي ﷺ في شيء من الصحاح أو السنن أو المسانيد ولا يُعرف في شيء من كتب الحديث المعتمدة، وبَسَط القول ـ رحمه الله ـ في ذلك في رسالة مفردة.

قال ـ رحمه الله ـ: « هذا الحديث ليس في الصحيحين ولا في أحدهما ولا يُعرف في شيء من كتب الحديث المعتمدة، ولا له إسناد معروف، وإنَّما يُروى عن أبي نصر التمّار عن آدم أبي البشر ، لا يَدري كم بين أبي نصر وآدم إلا الله ـ تعالى ـ، وذكر الحديث المتقدّم، ثم قال: فهذا لو رواه أبو نصر التمّار عن سيِّد ولد آدم ﷺ لما قبلت روايته لانقطاع الحديث فيما بينه وبين رسول الله ﷺ فكيف بروايته له عن آدم.

وقد ظنَّ طائفة من الناس أنَّ هذا الحمد بهذا اللفظ أكمل حمدٍ حُمِدَ الله به وأفضله وأجمعه لأنواع الحمد، وبنوا على هذا مسألة فقهيّة فقالوا: لو حلف إنسانٌ ليحمدنَّ الله بمجامع الحمد وأجلِّ المحامد فطريقه في برِّ يمينه أن يقول: « الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده » قالوا: ومعنى يوافي نعمه أي: يلاقيها فتحصل النعم معه، ويكافئ ـ مهموز ـ أي: يساوي مزيد نعمه، والمعنى: أنَّه يقوم بشكر ما زاد من النعم والإحسان ».

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: « والمعروف من الحمد الذي حمد الله به نفسه وحمده به رسوله ﷺ وسادات العارفين بحمده من أمته ليس فيه هذا اللفظ ألبتة، وأورد بعض صيغ الحمد الواردة في القرآن ثم قال: فهذا حمدُه لنفسه الذي أنزله في كتابه وعلَّمه لعباده، وأخبر عن أهل جنَّته به، وهو آكد من كلِّ حمدٍ وأفضلُ وأكملُ، كيف يبرُّ الحالف في يمينه بالعدول إلى لفظ لم يحمد به نفسه، ولا ثبت عن رسول الله ﷺ، ولا سادات العارفين من أمته، والنبي ﷺ كان إذا حمد الله في الأوقات التي يتأكّد فيها الحمد لم يكن يذكر هذا الحمدَ ألبتة كما في

حمد الخطبة، والحمد الذي تستفتح به الأمور، وكما في تشهّد الحاجة، وكما في الحمد عقب الطعام والشراب واللباس والخروج من الخلاء، والحمد عند رؤية ما يسرّه وما لا يسرّه .... ».

ثم ساق ـ رحمه الله ـ جملةً كبيرةً مما ورد عن النبي ﷺ من صيغ الحمد مما يقال في مثل هذه الأوقات، ثم قال: « فهذا جُملُ مواقع الحمد في كلام الله ورسوله وأصحابه والملائكة قد جُلّيتْ عليك عرائسها وجُلِبتْ إليك نفائسها، فلو كان الحديث المسؤول عنه أفضلها وأكملها وأجمعها كما ظنّه الظانّ لكان واسطة عقدها في النظام، وأكثرها استعمالاً في حمد ذي الجلال والإكرام»[1]. اهـ.

وبهذا التحقيق الذي ذكره ـ رحمه الله ـ يتبيّن ضعف هذه الصيغة في الحمد من جهة الرواية، وأنها لو كانت صحيحة ومشتملةً على أكمل الصيغ لما عدل عنها رسول الله ﷺ، ولما آثر غيرها عليها، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: « كان رسول الله ﷺ يستحبّ الجوامع من الدعاء، ويدَعُ ما سوى ذلك »، رواه أبو داود وغيرُه.

وسبق أن مرّ معنا قول النبي ﷺ: « أفضلُ الدعاء الحمد لله »، وبهذا يُعلم أنّ هذه الصيغة في الحمد لو كانت أكملَ لما تركها رسول الله ﷺ.

ثم إنّه ـ أيضاً ـ لا يمكن للعبد أن يحمد الله حمداً يوافي نعمة واحدة من نعم الله، فضلاً عن موافاته جميع نعم الله، ولا يمكن أن يكون فعلُ العبد وحمدُه له مكافئاً للمزيد، قال ابن القيّم ـ رحمه الله ـ: « فهذا من أمحل المحال، فإنّ العبد لو أقْدَرَه الله على عبادة الثَّقلين لم يقم بشكر أدنى نعمة عليه .... فمن الذي يقوم

---

(١) صيغ الحمد المطبوع باسم مطالع السعد (ص:٩٨).

بشكر ربِّه الذي يستحقه – سبحانه – فضلاً عن أن يكافئه »[1].

وقال ـ رحمه الله ـ: « ... ولكن يحمل على وجه يصح، وهو أنّ الذي يستحقه الله – سبحانه – من الحمد حمداً يكون موافياً لنعمه ومكافئاً لمزيده وإن لم يَقدِر العبدُ أن يأتي به »[2].

وأحسنُ من هذا وأكملُ ما ثبت في صحيح البخاري وغيره عن أبي أمامة الباهلي أنّ النبيّ ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: « الحمد لله حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه غير مكفيٍّ، ولا مودّع، ولا مستغنى عنه ربّنا »[3]، فلو كانت تلك الصيغة وهي قوله: « حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده » أكمل وأفضل من هذه لما عدل عنها رسول الله ﷺ، فإنّه لا يختار إلاّ الأفضل والأكمل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في معنى هذا الحديث: « المخلوق إذا أنعم عليك بنعمة أمكنك أن تكافئه، ونعمُهُ لا تدوم عليك، بل لا بدّ أن يودِّعك ويقطعها عنك، ويمكنك أن تستغني عنه، والله ﷻ لا يمكن أن تكافئه على نعمه، وإذا أنعم عليك أدام نعمَه، فإنّه هو أغنى وأقنى، ولا يُستغنى عنه طرفة عين ». اهـ[4].

وفيه بيانٌ لعظم دلالات الأدعية المأثورة والأذكار الثابتة وعمق معانيها وسلامتها من الخطأ الذي قد يعتري ما سواها، وبهذا تكون السلامةُ وتحصيل الكامل.

فالحمد لله بمحامده التي حمد بها نفسه، وحمده بها الذين اصطفى من خلقه حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه كما يحب ربّنا ويرضى.

---

(١) صيغ الحمد المطبوع باسم مطالع السعد (ص: ٤١، ٤٤).

(٢) عدة الصابرين (ص: ١٧٦).

(٣) صحيح البخاري (رقم: ٥٤٥٩).

(٤) صيغ الحمد لابن القيم المطبوع باسم مطالع السعد (ص: ٤٩).

●المطلب الخامس: تعريفُ الحمد، وبيان الفرق بينه وبين الشكر

الحمد في اللغة نقيض الذمِّ، قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: « الحاء والميم والدال كلمةٌ واحدة وأصلٌ واحد يدل على خلاف الذمّ، يُقال: حمدتُ فلاناً أحمده، ورجلٌ محمودٌ ومحمدٌ إذا كثرت خصالُه المحمودة غير المذمومة .. ولهذا الذي ذكرناه سُمِّيَ نبيّنا محمداً ﷺ »[1]. اهـ.

وقال الليث: أحمدت الرجل وجدته محموداً، وكذلك قال غيرُه: يُقال أتينا فلاناً فأحمدناه وأذممناه أي: وجدناه محموداً أو مذموماً[2].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[3] فيه تنبيه على أنّه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ محمود في أخلاقه وأفعاله ليس فيه ما يُذمّ، وكذلك قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾[4] فمحمّدٌ هاهنا وإن كان اسماً له عَلَماً عليه ففيه إشارة إلى وصفه بذلك وتخصيصه بوافر معناه، وأما سواه فقد يُسمَّى بذلك ويكون له حظ من الوصف الذي دلّ عليه هذا الاسم وقد لا يكون، أما الرسول الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فهو محمّدٌ اسماً ووصفاً.

فالحمد هو الثناء بالفضيلة وهو أخصُّ من المدح وأعمُّ من الشكر، فإنَّ المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره ومما يكون منه وفيه بالتسخير، فقد يُمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يُمدح ببذل ماله وشجاعته وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأول، أي: أنَّ الإنسان يُحمد على بذل

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٢/١٠٠).
(٢) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (٤/٤٣٤).
(٣) سورة: الصف، الآية: (٦).
(٤) سورة: الفتح، الآية: (٢٩).

المال والشجاعة والعلم ونحو ذلك مما يكون منه باختياره، ولا يُحمد على صباحة الوجه وطول القامة وحسن الخِلقة ونحو ذلك مما ليس له فيه اختيار.

والشكر لا يُقال إلاَّ في مقابلة نعمة، فكلُّ شكر حمد، وليس كلُّ حمدٍ شكراً، وكلُّ حمد مدح، وليس كلُّ مدح حمداً[1].

قال ابن القيّم ـ رحمه الله ـ: « الفرق بين الحمد والمدح أن يُقال: الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخباراً مجرّداً من حبٍّ وإرادة أو مقروناً بحبّه وإرادته، فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد، فالحمد إخبارٌ عن محاسن الممدوح مع حبِّه وإجلاله وتعظيمه »[2]. اهـ.

وقد سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن الحمد والشكر ما حقيقتهما؟ هل هما معنى واحد أو معنيان؟ وعلى أيّ شيء يكون الحمد؟ وعلى أي شيء يكون الشكر؟

فأجاب ـ رحمه الله ـ بقوله: ((الحمد يتضمّن المدحَ والثناءَ على المحمود بذكر محاسنه سواء كان الإحسان إلى الحامد أو لم يكن، والشكر لا يكون إلاّ على إحسان المشكور إلى الشاكر، فمن هذا الوجه الحمد أعمّ من الشكر؛ لأنّه يكون على المحاسن والإحسان، فإنّ الله يُحمد على ما له من الأسماء الحسنى والمثل الأعلى، وما خلقه في الآخرة والأولى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[3]، وقال: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ﴾[4]، وقال: ﴿الحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي (٢/٤٩٩).

(٢) بدائع الفوائد (٢/٩٣).

(٣) سورة: الأنعام، الآية: (١).

(٤) سورة: سبأ، الآية: (١).

الخَلقِ مَا يَشَآءُ﴾[1]، وأما الشكر فإنّه لا يكون إلاّ على الإنعام، فهو أخصُّ من الحمدَ من هذا الوجه، لكنه يكون بالقلب واليد واللسان، كما قيل:

أفادتكم النَّعماءُ مني ثلاثة يدِي ولساني والضمير المحجّبا

ولهذا قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكراً﴾[2]، والحمد إنما يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه الشكر أعمّ من جهة أنواعه، والحمد أعمّ من جهة أسبابه، ومن هذا الحديث: ((الحمد لله رأس الشكر، فمن لم يحمد الله لم يشكره))[3]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنّه قال: ((إنّ الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها))[4][5]. اهـ كلامه ـ رحمه الله ـ.

وبه يتبيّن أن بين الحمد والشكر عموما وخصوصا من وجه، فيجتمعان فيما إذا كان باللسان في مقابلة نعمة، فهذا يُسمّى حمدا ويُسمّى شكرا، وينفرد الحمد فيما إذا أثنى العبد على ربّه بذكر أسمائه الحسنى ونعوته العظيمة فهذا يُسمّى حمدا، ولا يُسمّى شكراً، وينفرد الشكر فيما إذا استعمل العبد نعمة الله في طاعة الله فهذا يُسمى شكرا ولا يُسمّى حمدا.

إنّ حمدَ الله هو الثناءُ على الله بذكر صفاته العظيمة ونعمِه العميمة مع حبّه وتعظيمه وإجلاله، وهو مختصٌّ به – سبحانه – لا يكون إلاّ له، فالحمد كلّه لله رب العالمين؛ ولذلك قال ـ سبحانه ـ: ﴿الحَمْدُ للهِ﴾ بلام الجنس المفيدة

---

(١) سورة: فاطر، الآية: (١).
(٢) سورة: سبأ، الآية: (١٣).
(٣) رواه عبد الرزاق في المصنف (١٠/٤٢٤)، والبيهقي في الآداب (ص:٤٥٩) من طريق قتادة: أنّ عبد الله ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ، فذكره.
قال البيهقي: ((هكذا جاء مرسلا بين قتادة ومن فوقه)).
(٤) صحيح مسلم (رقم:٢٧٣٤).
(٥) الفتاوى (١١/١٣٣،١٣٤).

للاستغراق. فالحمد كلّه له إمّا ملكا وإما استحقاقا. فحمده لنفسه استحقاق، وحمد العباد له وحمدُ بعضهم لبعض ملكٌ له ... فالقائل إذا قال: الحمد لله تضمّن كلامه الخبر عن كلّ ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمّن لكلّ فرد من أفراد الحمد المحققة والمقدّرة، وذلك يستلزم إثبات كلّ كمال يُحمد عليه الربُّ تعالى؛ ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه وهو الحميد المجيد »[1].

وإذا قيل: الحمد كلّه لله، فإنّ هذا له معنيان:

أحدهما: أنّه محمودٌ على كلّ شيء، وهو ما يُحمد به رسله وأنبياؤه وأتباعهم، فذلك من حمده ـ تبارك وتعالى ـ، بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات، وما نالوه من الحمد فإنّما نالوه بحمده، فهو المحمود أوّلا وآخرا وظاهرا وباطناً.

والمعنى الثاني: أن يُقال: لك الحمد كلّه؛ أي: التامّ الكامل هذا مختصٌّ بالله ليس لغيره فيه شركه.

قال ابن القيّم ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر هذين المعنيين: « والتحقيق أنّ له الحمد بالمعنيين جميعا، فله عمومُ الحمد وكمالُه، وهذا من خصائصه – سبحانه –، فهو المحمود على كلّ حال، وعلى كلّ شيء أكمل حمد وأعظمه »[2].

فالحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيّباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعِزّ جلاله بمجامع حمده كلّها ما علمنا منها وما لم نعلم.

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٢/٩٢، ٩٣).
(٢) طريق الهجرتين (ص:٢٠٦).

المبحث الخامس:
في التكبير، فضله ومعناه

•المطلب الأول: فضل التكبير ومكانته من الدِّين

إنَّ التكبير شأنه عظيم وثوابُه عند الله جزيل وقد تكاثرت النصوص في الحث عليه والترغيب فيه وذكر ثوابه.

يقول الله - تعالى -: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[1]، وقال - تعالى - في شأن الصيام: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]، وقال - تعالى - في شأن الحج وما يكون فيه من نسك يتقرَّب فيه العبدُ إلى الله: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾[3]، وقال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[4].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهو بصدد بيان تفضيل التكبير وعظم شأنه: « ولهذا كان شعائرُ الصلاة والأذان والأعياد والأمكان العالية هو التكبير، وهو أحد الكلمات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ، ولم يجئ في شيء من الأثر بدل قول الله أكبر، الله أعظم؛ ولهذا كان جمهور الفقهاء على أن الصلاة لا تنعقد إلا بلفظ التكبير، فلو قال: الله أعظم لم تنعقد به الصلاة لقول النبي ﷺ: « مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير

---

(١) سورة: الإسراء، الآية: (١١١).

(٢) سورة: البقرة، الآية: (١٨٥).

(٣) سورة: الحج، الآية: (٣٧).

(٤) سورة: المدثر، الآيات: (١ - ٣).

وتحليلها التسليم »[1]. وهذا قول مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف وداود وغيرهم، ولو أتى بغير ذلك من الأذكار مثل: سبحان الله، والحمد لله لَم تنعقد به الصلاة.

ولأنَّ التكبيرَ مختصٌّ بالذكر في حال الارتفاع كما أن التسبيح مختص بحال الانخفاض كما في السنن عن جابر بن عبد الله قال: « كنا مع رسول الله ﷺ إذا علونا كبرنا وإذا هبطنا سبحنا فوضعت الصلاة على ذلك »[2] ....»[3]. اهـ.

ثم إنَّ التكبيرَ مصاحِبٌ للمسلم في عبادات عديدة وطاعات متنوعة فالمسلم يكبر الله عند ما يكمل عدَّة الصيام، ويكبر في الحج كما سبق الإشارة إلى دليل ذلك من القرآن الكريم، وأما الصلاة فإنَّ للتكبير فيها شأناً عظيماً ومكانة عالية، ففي النداء إليها يشرع التكبير وعند الإقامة لها، وتحريمها هو التكبير، بل إنَّ تكبيرة الإحرام ركن من أركان الصلاة، ثم هو يصاحب المسلم في كلِّ خفض ورفع من صلاة، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: « كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يكبّر حين يقوم، ثم يكبر حين يركع، ثم يقول: سمع الله لمن حمده حين يرفع صلبه من الركعة، ثم يقول: ربنا لك الحمد، ثم يكبر حين يهوي، ثمَّ يكبر حين يرفع رأسه، ثم يكبر حين يسجد، ثم يكبر حين يرفع رأسه، ثم يفعل ذلك في الصلاة كلّها حتى يقضيها، ويكبر حين يقوم من الثنتين بعد الجلوس »[4].

---

(١) رواه أبو داود في سننه (برقم:٦١)، وصححه العلاّمة الألباني في الإرواء (٢/٨).
(٢) رواه مسلم في صحيحه (برقم:٢٧٣٤).
(٣) الفتاوى (١٦/١١٢،١١٣).
(٤) صحيح البخاري (رقم:٧٨٩)، وصحيح مسلم (رقم:٣٩٢).

وبهذا فالتكبير يتكرر مع المسلم في صلاته مرات كثيرة، فالصلاة الرباعية فيها اثنتان وعشرون تكبيرة، والثنائية فيها إحدى عشرة تكبيرة، وكلُّ ركعة فيها خمسْ تكبيرات، وعلى هذا فالمسلم يكبر الله في اليوم والليلة في الصلوات الخمس المكتوبة فقط أربعاً وتسعين تكبيرة، فكيف إذا كان محافظاً مع ذلك على الرواتب والنوافل، وكيف إذا كان محافظاً على الأذكار التي تكون أدبار الصلوات وفيها التكبير ثلاثٌ وثلاثون مرة، فالمسلم إذا كان محافظاً على الصلوات الخمس مع السنن الرواتب وعددُها ثنتا عشرة ركعة مع الشفع والوتر ثلاث ركعات ومحافظا على التكبير المسنون أدبار الصلوات ثلاثا وثلاثين مرة فإنّ عدد تكبيره لله في يومه وليلته يكون ثلاثمائة واثنتين وأربعين تكبيرة، ولا ريب أنّ هذا فيه دلالة على فضيلة التكبير حيث جعل الله للصلاة منه هذا النصيب الوافر، فإذا ضُمّ إلى ذلك التكبيرُ في الأذان للصلاة والإقامة لها ممّن يؤذن أو يُحافظ على إجابة المؤذن، زاد بذلك عدد تكبيره في يومه وليلته، فإنّ عدد ما يكون فيهما من تكبيرات في اليوم والليلة خمسون تكبيرة، فإنّ عدد التكبير بذلك يزيد.

ثم إنّ المسلم إذا كان محافظا على التكبير المطلق غير المقيد بوقت فإن عدد تكبيره لله في أيامه ولياليه لا يحصيه إلا الله – سبحانه –.

والتكبير ركنٌ من أركان الصلاة، فتحريمها لا يكون إلاّ به، وهذا يُشعِر ولا ريب بمكانة التكبير من الصلاة، وأنّ الصلاة إنما هي تفاصيل للتكبير الذي هو تحريمها، يقول ابن القيّم ـ رحمه الله ـ: « ... لا أحسن من كون التكبير تحريما لها، فتحريمها تكبير الربّ تعالى الجامع لإثبات كلّ كمال له، وتنزيهه عن كلّ نقص وعيبٍ، وإفراده وتخصيصه بذلك، وتعظيمه وإجلاله، فالتكبير يتضمّن تفاصيل أفعال الصلاة وأقوالها وهيآتها، فالصلاة من أوّلها إلى آخرها تفصيل لمضمون « الله أكبر »، وأيّ تحريم أحسن من هذا التحريم المتضمّن للإخلاص

والتوحيد! »[1]. اهـ.

وبهذا يتبيّن مكانةُ التكبير وجلالةُ قدره وعِظمُ شأنه من الدين، فليس التكبيرُ كلمةً لا معنى لها، أو لفظةً لا مضمون لها، بل هي كلمةٌ، عظيمٌ شأنها، رفيعٌ قدرها تتضمّن المعاني الجليلةَ والمدلولاتِ العميقةَ والمقاصدَ السامية الرفيعة.

قال ابن جرير - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[2]: « يقول وعظّم ربّك يا محمد بما أمرك أن تعظّمه به من قول وفعل، وأَطِعه فيما أمرك ونهاك »[3].

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - في تفسير الآية نفسها: « أي: عظّمه تعظيماً شديداً، ويظهر تعظيم الله في شدّة المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه والمسارعة إلى كلّ ما يرضيه »[4].

وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ الدِّينَ كلَّه يُعدُّ تفصيلاً لكلمة « الله أكبر » فالمسلم يقوم بالطاعات جميعها والعبادات كلّها تكبيراً لله وتعظيماً لشأنه وقياماً بحقّه سبحانه، وهذا مما يبيّن عظمةَ هذه الكلمة وجلالةَ قدرها، ولهذا يروى عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنّه قال: « قول العبد: الله أكبر، خيرٌ من الدنيا وما فيها »[5]، فالله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

---

(١) الصلاة لابن القيم (ص:١٠٦).

(٢) سورة: الإسراء، الآية: (١١١).

(٣) جامع البيان (٩/١٧٩).

(٤) أضواء البيان (٣/٦٣٥).

(٥) أورده القرطبي في تفسيره (١٠/٢٢٣).

●المطلب الثاني: في معنى التكبير وبيان مدلوله

التكبير هو تعظيم الربّ - تبارك وتعالى - وإجلاله، واعتقاد أنّه لا شيء أكبرُ ولا أعظمُ منه، فيصغر دون جلاله كلُّ كبير، فهو الذي خضعت له الرقاب وذلّت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كلَّ شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوّه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره المخلوقات.

قال الإمام الأزهري في كتابه تهذيب اللغة: « وقول المصلي: الله أكبر، وكذلك قول المؤذّن، فيه قولان:

أحدهما: أنّ معناه الله كبير، كقول الله جلّ وعزّ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[1]، أي: هو هيّنٌ عليه، ومثله قول مَعنِ بن أوس: لعمرك ما أدري وإني لأوجلُ.

معناه: وإني لوجلٌ.

والقول الآخر: أنّ فيه ضميراً، المعنى: الله أكبرُ كبيرٍ، وكذلك الله الأعزّ، أي: أعزُّ عزيزٍ، قال الفرزدق:

إنّ الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا بيتاً دعائمُه أَعَزُّ وأطولُ

معناه: أعز عزيز، وأطول طويل »[2]. اهـ.

والصواب من هذين القولين اللذين ذكرهما - رحمه الله - هو الثاني، بمعنى أن يكون الله عند العبد أكبرَ من كلِّ شيء، أي: لا أكبرَ ولا أعظمَ منه، أما الأول فهو غيرُ صحيحٍ وليس هو معنى الله أكبر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « التكبير يُراد به أن يكون (الله) عند العبد

---

(١) سورة: الروم، الآية: (٢٧).

(٢) تهذيب اللغة (١٠/٢١٤).

أكبر من كلِّ شيء، كما قال ﷺ لعديٍّ بن حاتم: « يا عديّ ما يُفرُّك؟ أيُفرُّك أن يُقال: لا إله إلا ا لله؟ فهل تعلم مِن إلـه إلاّ ا لله؟ يا عديّ ما يفرُّك. أيُفرُّك أن يقال: ا لله أكبر؟ فهل من شيء أكبر من ا لله؟ »، وهذا يُبطل قولَ من جعل أكبر بمعنى كبير »[1]. اهـ.

وحديث عديٍّ هذا رواه الإمام أحمد والترمذي وابن حبان وغيرهم بإسناد جيّد[2].

وبه يتبيّن أن معنى ا لله أكبر أي: من كلِّ شيء، فلا شيء أكبرُ ولا أعظمُ منه، ولهذا يُقال إنَّ أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال هي: ا لله أكبر، أي: صِفْهُ بأنّه أكبرُ من كلِّ شيء، قال الشاعر:

رأيتُ ا لله أكبر كلِّ شيء   محاولةً وأكثرهم جنوداً[3]

والتكبير معناه كما تقدّم التعظيم، لكن ينبغي أن يُعلم أنّ التعظيم ليس مرادفاً في المعنى للتكبير، فالكبرياء أكمل من العظمة؛ لأنّه يتضمّنها ويزيد عليها في المعنى، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه ا لله ــ: « وفي قوله « ا لله أكبر » إثبات عظمته، فإنّ الكبرياء تتضمّن العظمة، ولكن الكبرياء أكمل، ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة في الصلاة والأذان بقول: « ا لله أكبر » فإنّ ذلك أكمل من قول ا لله أعظم، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنّه قال: « يقول ا لله ـ تعالى ـ: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما عذّبته »[4]، فجعل العظمة كالإزار والكبرياء كالرداء، ومعلوم أنّ الرداء

(١) الفتاوى (٥/٢٣٩).
(٢) المسند (٤/٣٧٨)، وسنن الترمذي (٢٩٣٥م)، وصحيح ابن حبان (الإحسان) (رقم:٧٢٠٦).
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠/٢٢٣).
(٤) صحيح مسلم (رقم: ٢٦٢٠).

أشرف، فلمّا كان التكبيرُ أبلغَ من التعظيم صرّح بلفظه ، وتضمّن ذلك التعظيم»[1] . اهـ.

وها هنا أمرٌ ينبغي التنبّه له وعدم إغفاله، وهو أن المسلم إذا اعتقد وآمن بأنّ الله سبحانه وتعالى أكبر من كلِّ شيء، وأنّ كلَّ شيء مهما كبر يصغر عند كبرياء الله وعظمته، علمَ من خلال ذلك علم اليقين أن كبرياءَ الربِّ وعظمتَه وجلالَه وجمالَه وسائرَ أوصافه ونعوته أمرٌ لا يمكن أن تحيط به العقول أو تتصوّره الأفهام أو تدركه الأبصار والأفكار، فالله أعظم وأعظم من ذلك، بل إنّ العقولَ والأفهامَ عاجزةٌ عن أن تدركَ كثيراً من مخلوقات الرب ـ تبارك وتعالى ـ، فكيف بالرب – سبحانه –.

ثبت عن ابن مسعود ﷺ أنّه قال: « بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كلِّ سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسيِّ خمسمائة عام، وبين الكرسيِّ والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم »[2].

وروي عن زيد بن أسلم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « ما السموات السبع في الكرسي إلاّ كدراهم سبعة أُلقيت في ترس »[3].

وقال أبو ذر ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما الكرسي في العرش إلاّ

---

(١) الفتاوى (١٠/٢٥٣).

(٢) رواه الدارمي في الرد على الجهمية (ص:٢٦،٢٧)، والطبراني في الكبير (٩/٢٢٨)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/٦٨٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/٢٩٠)، وغيرهم.
قال الهيثمي في المجمع (١/٨٦): « رجاله رجال الصحيح »، وصححه الذهبي في العلو (ص:١٠٣ ـ مختصره).

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (٣/١٠)، وفي إسناده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف، وزيد تابعي، فهو مرسل.

كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض »[1].

وليتأمّل المسلم في عظم السماء بالنسبة إلى الأرض، وعظم الكرسيِّ بالنسبة إلى السماء، وعِظم العرش بالنسبة إلى الكرسيِّ، فإنّ العقولَ عاجزةٌ عن أن تدرك كمال هذه الأشياء أو أن تحيط بكُنْهِها وكيفيتها وهي مخلوقة، فكيف بالأمر إذاً في الخالق – سبحانه –، فهو أكبر وأجلُّ من أن تعرف العقولُ كُنْهَ صفاته أو تدرك الأفهامُ كبرياءَه وعظمتَه، ولهذا جاءت السنةُ بالنهي عن التفكّر في الله؛ لأنّ الأفكار والعقول لا تدرك كنه صفاته، فالله أكبر من ذلك، قال ﷺ: « تفكّروا في آلاء الله، ولا تفكّروا في الله ﷻ »[2].

والتفكّرُ المأمور به هنا كما يبيّن ابن القيّم - رحمه الله - هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة[3]، وهذا يتضح بالمثال، فالمسلم إذا أحضر في قلبه كبر هذه المخلوقات من سموات وأرض وكرسي وعرش ونحو ذلك، ثم أحضر في قلبه عجزه عن إدراك هذه الأشياء والإحاطة بها حصل له بذلك معرفة ثالثة وهي عظمة وكبرياء خالق هذه الأشياء وعجز العقول عن أن تدرك صفاته أو تحيط بنعوته – سبحانه –، يقول – سبحانه –: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[4]، فالله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/١٦٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/٦٤٨ – ٦٤٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/٣٠٠ – ٣٠١)، وغيرهما، وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم:١٠٩) بمجموع طرقه.

(٢) رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد (٣/٥٢٥)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/٢١٠) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

وإسناده ضعيف جدًّا، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة، وعبد الله بن سلام، وأبي ذر، وابن عباس. وقد حسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم:١٧٨٨) بمجموع طرقه.

(٣) مفتاح دار السعادة (ص:١٨١).

(٤) سورة: الإسراء، الآية: (١١١).

الخاتمة

في بيان التلازم بين الكلمات الأربع

الحمد لله أولاً وآخراً، والشكر له ظاهراً وباطناً على نعمه العديدة وآلائه الكثيرة، ومنها إتمام هذا البحث الذي تحدثتُ فيه عن الكلمات الأربع « سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر » وما ورد في فضلهنّ إجمالاً وتفصيلاً، وما يتعلّق كذلك بمعانيهنَّ ومدلولهنّ، ولعلّ من الحسن في ختام الحديث عن هؤلاء الكلمات أن أشير إلى ما بينهنَّ من ترابط وتلازم، وقد علمنا من خلال ما تقدّم أنّ هؤلاء الكلمات هنّ أفضل الكلام بعد القرآن الكريم وهنَّ من القرآن الكريم، وتقدّم معنا ـ أيضاً ـ الإشارة إلى جملة كبيرة من النصوص الدالة على عظم شأن ذكر الله ـ تعالى ـ بهؤلاء الكلمات الأربع وما يترتّب على ذلك من أجور كثيرة وفضائل وفيرة وخير مستمر في الدنيا والآخرة، ولا شك أنّ هذا فيه أوضح إشارة على قوة الارتباط بين هذه الكلمات الأربع وشدة الصلة بينهنّ.

وهؤلاء الكلمات كما أوضح أهل العلم « شطران، فالتسبيح قرين التحميد، ولهذا قال النبي ﷺ: « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم »، أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة[1]. وقال ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي ذر: « أفضل الكلام ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده »[2]، وفي القرآن يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾[3]، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٦٤٠٦)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩٤).

(٢) صحيح مسلم (رقم: ٢٧٣١).

(٣) سورة البقرة، الآية (٣٠).

﴿كَانَ تَوَّابًا﴾[1]، فكان النبي ﷺ يقول في ركوعه: « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي »، يتأوّل القرآن ، هكذا في الصحاح عن عائشة ـ رضي ا لله عنها ـ[2]، فجعل قوله: « سبحانك اللهم وبحمدك » تأويل ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، وقد قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[3]، وقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[4]، والآثار في اقترانهما كثيرة.

وأمّا التهليلُ فهو قرينُ التكبيرِ كما في كلمات الأذان: ا لله أكبر ا لله أكبر، أشهد أن لا إله إلاَّ ا لله أشهد أنَّ محمداً رسول ا لله، ثم بعد دعاء العباد إلى الصلاة ا لله أكبر ا لله أكبر لا إله إلاَّ ا لله، فهو مشتملٌ على التكبير والتشهد [في] أوله وآخره، وهو ذكر لله تعالى، وفي وسطه دعاء الخلق إلى الصلاة والفلاح، فالصلاة هي العمل، والفلاح هو ثواب العمل، لكن جعل التكبير شفعاً والتشهد وتراً، فمع كلِّ تكبيرتين شهادة، وجعل أوله مضاعفاً على آخره، ففي أول الأذان يكبر أربعاً، ويتشهّد مرّتين، والشهادتان جميعاً باسم الشهادة، وفي آخره التكبير مرتان فقط مع التهليل الذي لم يقترن به لفظ الشهادة.

... وكما جمع بين التكبير والتهليل في الأذان جمع بينهما في تكبير الإشراف، فكان على الصفا والمروة، وإذا علا شرفاً في غزوة أو حجة أو عمرة يكبر ثلاثاً ويقول: « لا إله إلاَّ ا لله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلاَّ ا لله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ

(١) سورة النصر، الآية (٣).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٨١٧)، وصحيح مسلم (رقم:٤٨٤).
(٣) سورة غافر، الآية (٥٥).
(٤) سورة الروم، الآية (١٧،١٨).

جنده، وهزم الأحزاب وحده » يفعل ذلك ثلاثاً، وهذا في الصحاح[1]، وكذلك على الدابة كبّر ثلاثاً وهلّل ثلاثاً فجمع بين التكبير والتهليل، وكذلك حديث عدي بن حاتم الذي رواه الترمذي فيه أنَّ النبي ﷺ قال له: « يا عدي ما يُفِرُّك؟ أيُفِرُّك أن يقال: لا إله إلاَّ الله، فهل تعلم من إله إلاَّ الله؟ يا عدي ما يُفِرُّك؟ أيُفِرُّك أن يقال: الله أكبر فهل من شيء أكبر من الله » فقرن النبي ﷺ بين التهليل والتكبير »[2] »[3].

ثم إنَّ أفضل هؤلاء الكلمات هو التهليل لاشتماله على التوحيد الذي هو أصل الإيمان، وهو الكلام الفارق بين أهل الجنة وأهل النار، وهو ثمن الجنة، ولا يصلح إسلام أحد إلاَّ به ومن كان آخر كلامه لا إله إلاَّ الله دخل الجنة، ومنزلة التحميد والتسبيح منه منزلة الفرع من الأصل، فالتهليل أصل وما سواه فرع له وتابع، ولهذا قال ﷺ كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلاَّ الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[4]. فجعل - صلوات الله وسلامه عليه - التهليل أعلا وأرفع شعب الإيمان، وفي المسند عن أبي ذر رضي الله عنه قال: « قلت: يا رسول الله أفمن الحسنات لا إله إلاَّ الله؟ قال: هي أفضل الحسنات »[5]، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً، وقد تقدّم معنا جملة كبيرة منها.

---

(١) صحيح البخاري (رقم:١٧٩٧)، وصحيح مسلم (رقم:١٣٤٤).
(٢) سنن الترمذي (٢٩٣٥م).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٤/٢٣١ - ٢٣٣).
(٤) صحيح البخاري (رقم:٩)، وصحيح مسلم (رقم:٣٥).
(٥) المسند (٥/١٦٩).

ولا يعارض هذا ما ثبت عن النبي ﷺ أنّه قال: « أفضل الكلام ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده »[1]؛ إذ لا يلزم منه ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن يكون أفضل مطلقاً بدليل أنّ قراءة القرآن أفضل من الذكر، وقد نهى النبي ﷺ عنها في الركوع والسجود وقال: « إني نُهيتُ أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، أما الركوع فعظموا فيه الربّ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم »[2].

وها هنا أصل عظيم نبّه عليه شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ وهو أنّ الشيء إذا كان أفضل من حيث الجملة لم يجب أن يكون أفضل في كل حال ولا لكل أحد، بل المفضول في موضعه الذي شرع فيه أفضل من الفاضل المطلق، كما أنّ التسبيح في الركوع والسجود أفضل من قراءة القرآن ومن التهليل والتكبير، والتشهد في آخر الصلاة والدعاء بعده أفضل من قراءة القرآن، فالتفضيل مختلف باختلاف الأحوال فقول النبي ﷺ لما سئل أيُّ الكلام أفضل؟ فقال: « سبحان الله وبحمده »، هذا خرج على سؤال سائل، فربما علم النبي ﷺ من حال السائل حالاً مخصوصة.

وعلى كلٍّ فالتفضيل مختلف باختلاف الأحوال، وإن كان التهليل أفضل مطلقاً والأحوال ثلاثة: حال يستحب فيها الإسرار ويكره فيها الجهر لأنّها حال انخفاض كالركوع والسجود، فهنا التسبيح أفضل من التهليل والتكبير، وكذلك في بطون الأودية، وحال يستحب فيه الجهر والإعلان كالإشراف والأذان فهنا التهليل والتكبير أفضل من التسبيح، وحال يشرع فيه الأمران[3].

نسأل الله الكريم أن يوفقنا وجميع المسلمين لكل خير يحبه ويرضاه، وصلى الله وسلم على نبيّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) صحيح مسلم (رقم: ٢٧٣١).

(٢) صحيح مسلم (رقم: ٤٧٩).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٤/٢٣٥ ـ ٢٣٩).

فهرس المصادر والمراجع

•الآداب: للبيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى (١٤٠٦هـ).

•الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: لابن بَلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة (١٤١٤هـ).

•الأسماء والصفات: للبيهقي، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي جدة، الأولى (١٤١٣هـ).

•أضواء البيان: للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.

•البداية والنهاية: للحافظ ابن كثير، مكتبة المعارفة، بيروت، الثانية (١٣٩٧هـ).

•بدائع الفوائد: لابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت.

•بصائر ذوي التمييز: للفيروزأبادي، تحقيق: علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.

•تفسير القرآن العظيم: لابن كثير، ط دار الشعب، القاهرة.

•تهذيب اللغة: لأبي منصور الأزهري، تحقيق: عبد السلام هارون، دار القومية العربية، القاهرة (١٣٨٤هـ).

•تيسير العزيز الحميد: للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المكتب الإسلامي، بيروت (١٣٩٧هـ).

•جامع البيان عن تأويل آي القرآن: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر (١٤٠٥هـ).

•جامع العلوم والحكم: لابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الثانية (١٤١٢هـ).

•جامع العلوم والحكم: لابن رجب، دار المعرفة بيروت.

•الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى (١٤٠٨هـ).

•جزء في تفسير الباقيات الصالحات: للعلائي، تحقيق: بدر الزمان محمد شفيع النيبالي، مكتبة الإيمان، الأولى (١٤٠٧هـ).

•الحجة في بيان المحجة: للحافظ التميمي، دار الراية الرياض، الأولى (١٤١١هـ).

•حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، لبنان.

•الدرر السنية في الأجوبة النجدية: مطابع المكتب الإسلامي، بيروت.

•الدعاء للطبراني: تحقيق: د. محمد سعيد البخاري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الأولى (١٤٠٧هـ).

•دقائق التفسير: لابن تيمية، تحقيق: د. محمد السيد الجليذ، مؤسسة علوم القرآن، دمشق بيروت.

•دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: لـ[illegible] تعليق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى (١٤٠٥م

•دلائل النبوة: لأبي القاسم التيمي، تحقيق: مساعد بن سـ[illegible] الراشد الحميد، دار العاصمة، (١٤١٢هـ).

•الرد على الجهمية: للدارمي، تحقيق: بدر البدر، الدار السـ[illegible]، الكويت، الأولى (١٤٠٥هـ).

•سلسلة الأحاديث الصحيحة: للشيخ الألباني، مكتبة المعارف الرياض.

•السنة: لابن أبي عاصم، ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة للشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت ط٢ (١٤٠٥هـ).

•السنن الكبرى: للنسائي، تحقيق: د ـ عبد الغفّار البنداري، وسيد كسروي، دار الكتب العلمية (بيروت)، (١٤١١هـ).

•السنن: لأبي داود، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، دار الحديث (حمص ـ سورية).

•السنن: لابن ماجه، تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة

العلمية (بيروت).
•السنن: للترمذي، دار الكتب العلمية (بيروت) (١٤٠٨هـ).
•السنن: للدراقطني، عالم الكتب، بيروت لبنان.
•السنن: للدرامي، تحقيق: فواز زمرلي، وخالد السبع، دار الريان، الأولى (١٤٠٧هـ).
•السنن: للنسائي، ط دار الريان.
•شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: لللالكائي، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان، دار طيبة للنشر، الرايض.
•شرح صحيح مسلم: للنووي، دار الفكر، بيروت لبنان.
•الشكر: لابن أبي الدنيا، تحقيق: بدر البدر.
•صحيح البخاري: درا الكتب العلمية، بيروت، الأولى (١٤١٢هـ).
•صحيح الجامع الصغير: للشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، الثانية، (١٤٠٦هـ).
•صحيح سنن أبي داود: للألباني، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض.
•صحيح مسلم: لمسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الحديث.
•الصلاة: لابن القيم، المطبعة السلفية، القاهرة، الخامسة (١٣٩٩هـ).
•طريق الهجرتين : لابن القيم ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، الثالثة (١٤٠٠هـ).
•عدة الصابرين: لابن القيم، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، الرابعة (١٤١٠هـ).

•العظمة: لأبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق: رضاء الله بن محمد المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، الأولى (١٤٠٨هـ).

•فتح الباري شرح صحيح البخاري: للحافظ ابن حجر، دار المعرفة بيروت.

•فضل التهليل وثوابه الجزيل: لابن البنا، تحقيق: عبد الله بن يوسف الجديع، دار العاصمة، الرياض، الأولى (١٤٠٩هـ).

•الفوائد: لابن القيم، تحقيق: بشر محمد عيون، نشر مكتبة البيان، الأولى (١٤٠٧هـ).

•القاموس المحيط: للفيروزأبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت الثانية (١٤٠٧هـ).

•كشف الأستار عن زوائد البزار: للهيثمي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة.

•كلمة الإخلاص: لابن رجب، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الخامسة (١٣٩٩هـ).

•مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للهيثمي، دار الكتاب، بيروت (١٤٠٧هـ).

•مجموع الفتاوى: لابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مكتبة المعارف الرباط.

•مختصر العلو للعلي الغفار: للذهبي، اختصار: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الأولى (١٤٠١هـ).

•المستدرك على الصحيحين: للحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية.

•المسند: للإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي (بيروت)، (١٤٠٥هـ).

•المسند: للطيالسي، دار المعرفة، بيروت، ومكتبة المعارف بالرياض

•المصنف: لعبد الرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت لبنان.
•المصنّف: لابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار التاج، بيروت لبنان.
•معارج القبول: للشيخ حافظ الحكمي، المطبعة السلفية.
•المعجم الأوسط: للطبراني، تحقيق: طارق بن معوض، وعبد المحسن بن إبراهيم، دار الحرمين، القاهرة.
•المعجم الكبير للطبراني: تحقيق: حمدي السلفي، دار إحياء التراث العربي، الثانية.
•معجم مقاييس اللغة: لابن فارس، دار الكتب العلمية، إيران.
•مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: لابن هشام، دار الفكر بيروت.
•مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: لابن القيم، تحقيق: محمود حسن ربيع، مكتبة الأزهر، القاهرة، الثانية (١٣٥٨هـ).
•مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: لابن القيم، تحقيق: علي بن حسن ابن عبد الحميد، دار ابن عفان، الخبر، الأولى (١٤١٦هـ).
•مطالع السعد بكشف مواقع الحمد: لابن القيم، تحقيق: فهد العسكر، دار ابن خزيمة، الرياض، الأولى (١٤١٤هـ).

فهرس المحتويات

الموضوع — الصفحة

المقدّمة ٩

المبحث الأول: في ذكر النصوص الدالة على فضل هؤلاء الكلمات الأربع ١١

المبحث الثاني: لا إله إلاَّ الله، فضلها ومعناها وشروطها ونواقضها ... ٢٠

المطلب الأول: فضائل كلمة لا إله إلاَّ الله ٢٠

المطلب الثاني: مدلول ومعنى لا إله إلاَّ الله ٢٨

المطلب الثالث: شروط لا إله إلاّ الله ٣٣

المطلب الرابع: نواقض شهادة أن لا إله إلاّ الله ٣٨

المبحث الثالث: في التسبيح فضله ومكانته ومدلوله ٤٢

المطلب الأول: فضل التسبيح ٤٢

المطلب الثاني: تسبيحُ جميع الكائنات لله ٥١

المطلب الثالث: معنى التسبيح ٥٥

المبحث الرابع: في الحمد، فضله وأنواعه ودلالته ٦١

المطلب الأول: فضلُ الحمدِ والأدلَّةُ عليه ٦١

المطلب الثاني: المواطن التي يتأكّد فيها الحمد ٧٠

المطلب الثالث: في بيان موجبات الحمد وأنواعه ٧٤

المطلب الرابع: أفضلُ صِيَغِ الحمد وأكملُها ٨٦

المطلب الخامس: تعريفُ الحمد، وبيان الفرق بينه وبين الشكر ٩٠

المبحث الخامس: في التكبير فضله ومعناه ٩٤
المطلب الأول: فضل التكبير ومكانته من الدِّين ٩٤
المطلب الثاني: في معنى التكبير وبيان مدلوله ٩٨
الخاتمة: في بيان التلازم بين هؤلاء الكلمات الأربع................................ ١٠٢
فهرس المصادر والمراجع ١٠٦
فهرس المحتويات ١١١